حيثيات بقاء الدولة

صالح بن سعد اللحيدان

العبيكان
Obeikan

حيثيات بقاء الدولة

صالح بن سعد اللحيدان

العبيكان
Obeikan

© شركة العبيكان للتعليم، ١٤٤٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللحيدان؛ صالح بن سعد بن صالح

حيثيات بقاء الدولة/ صالح بن سعد بن صالح اللحيدان.

-الرياض، ١٤٤٠هـ

٢٨٨ ص ؛ ١٦,٥ × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٢٥٧-٥٠٩-٦٠٣-٩٧٨

١-المقالات العربية - السعودية أ. العنوان

ديوي ٠٨١ ٤٩٨٢/ ١٤٤٠

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ / ٢٠١٩م

نشر وتوزيع العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية-الرياض

طريق الملك فهد-مقابل برج المملكة

هاتف: ٤٨٠٨٦٥٤ ١١ ٩٦٦+، فاكس: ٤٨٠٨٠٩٥ ١١ ٩٦٦+

ص.ب: ٦٧٦٢٢ الرياض ١١٥١٧

العبيكان للنشر Obeikan Publishing

obeikanpub obeikan.reader

للحصول على كتبنا الورقية

سوق amazon احدى شركات

وادي wadi

للحصول على كتبنا الصوتية

Kitab Sawti www.kitabsawti.com

دار ضاد للنشر الإلكتروني WWW.DHAD.SA

للحصول على كتبنا الإلكترونية

أجهزة amazon kindle

Google Play

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

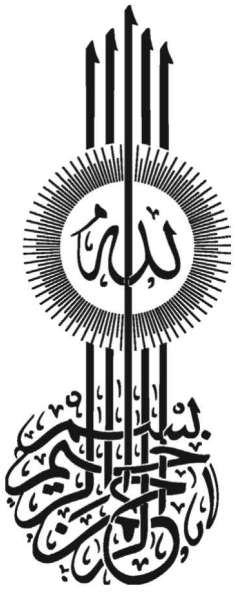
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

حاجة كبار العلماء واللغويين إلى هذا في الدولة المعاصرة ٩

الدولة... كيف يكون الحلم في هذا العصر؟ ١٣

السؤال: أين العلماء وأهل اللغة في الدولة المعاصرة؟ ١٥

العقل اللغوي الاجتهادي في الدولة الحديثة ١٩

العلم مسؤولية الدولة ٢٣

بقاء الدولة... أين يقع الإشكال؟ ٢٧

الدولة والموهبة والمسؤولية اليوم (١) ٣١

الدولة والموهبة والمسؤولية اليوم (٢) ٣٥

حماية العقول وبناء الولاء في الدولة المعاصرة ٣٩

الدولة بين السياسة والتوطين... كيف الحل يكون؟ ٤٣

الفكر والبغي ٤٧

نقد عرض الكتب الثقافي والعلمي ٤٩

نقد عرض الكتب الثقافي والعلمي في الدولة الحديثة ٥٥

نقد السياسة العلمية في الدولة الحديثة ٥٧

حيثيات دوام الدولة (١) ٦١

حيثيات دوام الدولة (٢) ٦٥
أصول الحكم في الدولة ٦٩
التجربة العلمية الحرة في الدولة المعاصرة ٧٣
نقد السياسة العلمية في الدولة المعاصرة ٧٧
أصول الحكم في الدولة ٨١
الدولة والموهبة والمسؤولية اليوم ٨٥
أين الخلل في حكم الدولة؟ ٨٩
العلماء النابهون والوراقون في الدولة المعاصرة ٩٣
أزمة العلم والعلماء في الدولة المعاصرة (١) ٩٧
أزمة العلم والعلماء في الدولة المعاصرة (٢) ١٠١
أصول النقد والنقل بين العلماء والكتّاب في هذا الحين ١٠٥
معجم الأقوال في عرض الكتب في الدولة الحديثة ١١٣
معجم كتب السياسة لبناء العقل ١٢١
العلم... كيف يكون في الدولة الحديثة؟ ١٢٥
البدل... أين النحويون اليوم؟ ١٢٧
الاستشارة العقلية وسياسة الدولة المعاصرة ١٣١
تدهور الدولة... أين العلاج؟ ١٣٥

نقد المنهج العلمي لدى العلماء المعاصرين في الدولة الحديثة . ١٣٩
قوة الدولة وضعفها أيام الأزمات ١٤٥
أصل الخطأ عند العلماء المعاصرين اليوم ١٤٧
أصول كتابة المعاجم وفقه الدلالة... (١) ١٥١
أصول كتابة المعاجم وفقه الدلالة... (٢) ١٥٥
الهيئات العلمية والمجامع اللغوية في العصر الحديث ١٥٩
الموهبة القضائية... أين هي؟ ١٦٣
مسؤولية كبار العلماء والمثقفين إلى أين في الدولة؟ ١٦٧
التجربة العلمية الحرة ١٧١
الرحلة العلمية واللغوية ١٧٥
أسباب تردي علم اللغة لدى العلماء... والكُتَّاب اليوم ١٧٩
نقد الطرح الروائي بين السرد والواقعية في الدولة الحديثة ١٨٣
المشكلة في طلب الرئاسة (١) ١٨٩
المشكلة في طلب الرئاسة (٢) ١٩١
العلم واللغة بين وزارتي الشؤون الإسلامية والثقافة والإعلام ١٩٣
القضاء... الموهبة والمسؤولية في الدولة المعاصرة ١٩٩
الطرق والمعرفة لدى الكتاب والباحثين اليوم ٢٠٣

الإنسان من خلال الزمن قراءة علمية ٢٠٩

تبني الدولة للمجتهد الموهوب متى يكون؟ ٢١٧

بناء الدولة من خلال العقل كيف يكون؟ ٢٢١

أين المسؤولون حيال السطو والبحث العلمي؟ ٢٢٥

حاجة كبار العلماء واللغويين إلى هذا في الدولة المعاصرة

ثبت عن طريق السبر النظري والتحليل التاريخي بحسب الأسانيد المثبتة لدي عن العرب قبل الإسلام، أنّ جلهم كان لا يختلطون بغيرهم ممن لا يتكلم بلغتهم، وهم يعتزون بهذا على وتيرة واحدة وسبيل دائم مقيم.

وقد كان هذا دون ريب من أسباب قوة اللغة ومتانتها، من حيث اللفظ ومن حيث المعنى سواء بسواء، حتى لعل غيرهم ممن تعلم اللغة بالمجاورة أو تعلمها بالمصاحبة لعلهم كانوا لا يفهمون بعض معاني اللغة، فكانوا يستفسرون عن هذا أو ينشدون طلب أساسيات المعاني ومرامي الإشارات إلى المراد. وهذا قد جعل العرب أمة قوية في لغتها وآدابها، مستقلة في سيرها صوب مدارك رقي اللغة والتشبث بها.

وقد كان من سياسة النسق اللغوي اللافت للنظر، نظر كبار العلماء الذين يبحثون الموهبة اللغوية لدى العرب، أن اللهجة اللغوية كانت تختلف من قوم إلى قوم آخرين، فهذيل مثلًا لها لهجة وبلى لها لهجة وقريش لها لهجة وهكذا، لكن كل ذلك كان يصب في دائرة اللغة الأم لا تعدوها إلى غيرها، وهذا ما جعل اللغة ذات بُعد جليل موهوب، ثم حصل ما لم يكن بالحسبان أن يكون لكنه كان قد جاء الإسلام حال قوة اللغة وقدرتها وموهبتها وتنوع أسباب ذلك، هذا كله مما يدرك على الأقل بالسليقة، وإن لم يكن المرء عالمًا باللغة.

فحينما جاء الإسلام، وحرر العقل، وجعل القلب تبعًا له، وجعل العاطفة تسير بركابه، برزت اللغة، وتحركت، وتوسعت في مضامين وإشارات لم يكن لها ذلك لولا ما جاء من محرك لها ومضيف إليها، ما جعلها تتجه صوب مخاطبة العقول الحرة المتوسعة نحو آفاق سامقة من الدلالات التي احتاج إليها الناس عبر القرون، ويعاد في هذا (عمدة القارئ للإمام العيني) (والكتاب) للإمام سيبويه و(الخصائص) للإمام ابن جني و(البحر المحيط) لأبي حيان التوحيدي، وابن هشام في شرحه لألفية ابن مالك، وابن حجر في شرحه على البخاري.

وسوف أسير وفق هذا المعجم شيئًا فشيئًا لإيراد مسائل تهم العلماء والباحثين وذوي الاهتمام اللغوي بحسب ما توصلت إليه:

١- حينما جاء الإسلام نشد الناس وانتشر المسلمون والعرب، جزء منهم انتشروا في أصقاع الأرض، توسعت الصلة بينهم وبين أمم أخرى، وحينما تم اختلاط المسلمين بغيرهم انتشرت اللغة، ونطق بها آخرون.

٢- حافظت اللغة على مكانتها وقوّتها ودورها ردحًا طويلًا من الزمن، واستفاد خلق لا يحصى منها في معرفة معانٍ وأمور لم يكونوا ليقفوا عليها لولا اللغة.

٣- ضبط كثير من الحكام البارزين مذ عام ٤٠هـ حتى سنة ٢٥٠هـ، ضبطوا اللغة، وتابعوا أمرها لئلا يفسد الذوق اللساني بالنطق بها، وقد تم هذا حتى سنة ٤٠٠هـ.

٤- ظهرت بوادر ليست حسنة لكنها بحسب متابعتي وتحليلي التسلسلي لآداب اللغة وعلومها مما صح من الآثار في الكتب الستة عند علماء الحديث، ظهرت بوادر من خلال المولدين، أولئك الذين لم يقدروا على ضبط اللغة، من خلال النطق بها لتعثر الألسن وصعوبة نطق كثير من الحروف.

٥- ظهر بعد حين أظنه ليس ببعيد ظهر اللحن تدريجيًّا حتى خشي على اللغة أن تندرس وتمرض، ثم يكون الطغيان بسبب هذا اللحن.

أقول ومما ورد في هذا من اللحن وهو مثال يدل على غيره، أن أمير البصرة أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كتب كاتبه إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمدينة ما يأتي: «من أبو موسى الأشعري إلى أمير المؤمنين... إلخ».

فلما قرأه عمر بعث إليه ما فحواه «أن قنع كتابك سوطًا» يريد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هنا أن اضرب كتابك سوطًا، وهذه كناية عن التعزير لحصول اللحن الشديد؛ لأن الأصل أي يقول: «من أبي موسى» لا «أبو موسى».

من هذا تولد خلال تتالي العهود اللاحقة شدة التنبه لمثل هذا، فسار الخلفاء والحكام فيما بعد على نهج عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وشددوا على العلماء و الكتّاب والشعراء ألا يقعوا في اللحن أن يتقوا الزلل بمراجعة ما يكتبون.

٧- تولّد من جراء ذلك النحو علم قائم بذاته لضبط دلالات اللغة وحسن النسق لسياستها ليكون النحو قائمًا على سوقه، ليتم فهم الجمل والتراكيب من خلال النحو بيانًا وإعرابًا،

وما أحسن «المثل السائر لابن الأثير فهو كتاب جدير بالقراءة مع التدبر، ففيه روايات جيدة ونكات لغوية غالبها مفيد في بابه».

وسوف -إن شاء الله تعالى- أضيف المزيد مما يهم هذا الباب.

الدولة... كيف يكون الحلم في هذا العصر؟

من هنا أبدأ بتحليل بعض المفردات التي لا بد منها في مثل هذا، فأقول:

هدأ اطمأن.

هدأ استقر قلبه.

هدأ سكن من السكون، وتلك هي الطمأنينة في صفة من صفاتها.

هدأ ارتاح باله لأمر استقر عليه.

هدأ قر قراره بعد عنف أو أمر استفزه.

ومثل ذلك يهدأ ومشتقات هذا الفعل.

هادى رافقه جنبًا لجنب، أو تبعه خطوة خطوة وراءه.

هادٍ راجع.

هادٍ دال ومرشد.

هادي مثله تمامًا إلا أن التي قبلها تحذف الياء؛ لأنها حرف علة للموجب الطارئ.

هدنا رجعنا، وهدنا إنما ذلك بضم الهاء.

والهدوء أصله صفة عقلية مكينة، وليس ذلك من صفات القلب، لكن العقل والقلب، وتتبعهما العاطفة، وتشترك هذه كلها في معنى الهدوء؛ إذ العقل يبث الإيحاءات المعنوية إليها بوافر من القوة.

والهدوء يكون وراثيًّا، ويكون مكتسبًا بعد طول التجربة والاستفادة من مواقف الحياة سلبًا وإيجابًا.

فإذا كان الهدوء وراثيًّا، وصقلته التجربة كثيرًا، أصبح الهدوء حلمًا.

والهدوء صفة أصلية، توصل صاحبها إلى السؤدد، ولو لم يشعر بذلك ما لم يُقطع الطريق عليه، أو تُساء سيرته بغيبة أو غمز أو لمز أو استعداء ذوي السلطة.

وهذا يقودني إلى القول: إن الحلم إذا اتصفت به الدولة حلت في العقول الهيبة لها، مع التقدير والإجلال؛ لأن ذلك كله -أعني الحلم وآثاره- يضفي في اللاشعور العام العدل وشفافية الهدوء والطمأنينة، فلا يكون ثمة مكان لمنغص أو حانق أو حاقد أو متكسب.

والحلم هنا مضابطة القوة الحكيمة، تلك التي تصيب ولا تخطئ، وتجعل المرجف والمتكسب بجاهه أو وظيفته أو الاتكاء على معارفه، تجعله يتردد فرقًا واضطرابًا أن يقول أو يعمل أو يشير بغير ما هو صالح نافع للعموم على وجه البيان تبعًا لسياسة الدولة التي تنشد الحق، وتريده لحفظ الشأن الذي يلزمها أن تقوم به مما ولاه الله إياها.

وذلك أن المرجف والمتكسب والمتزلف كلهم -بحسب رؤيتي في سياسة الإدارة العليا والتحقيق القضائي الدقيق- قد يكونون إن لم يكونا بابًا مفتوحًا لكل من أراد البلبلة أو السوء ولو من بابٍ خفيٍّ.

السؤال: أين العلماء وأهل اللغة في الدولة المعاصرة؟

تأسس العلم أصله على المدارك الحيَّة في أغوار النفس وثنايا الروح.

والعلم ما لم يكن كذلك، فتأسس على الجهل، فإن من طبيعة ذلك اقتحام الميدان من دون سلاح، ومن هنا ينشأ التميل النفسي في أعماق اللاوعي، فيصدق المرء نفسه أنه عالم في علم ما نال منه ما لا يسعه أن يكون في عداد العلماء فضلًا على (النقاد) أو اللغويين... إلخ.

وهذا ما في ذلك شك يقود إلى طغيان الجرأة على العلم، وطغيان الجرأة على النقد، والمشكلة هنا أن الجرأة تقود صاحبها إلى كثرة الكتابة وتكرار القول وشدة جرح المخالف وذمه.

ومن طبيعة هذا تدهور العقلية شيئًا فشيئًا حتى تطغى أساليب الإنشاء وروح المهاترة.

لكن لنقرأ معًا هذا الأمر المتنوع ما بين عالم وناقد ولغوي لندرك الخلل، هذا إذا أدركناه فالخلل أصبح اليوم شيئًا لا مندوحة عنه.

فالدكتور المزيني ملامٌ كثيرًا في تبعيته لتشومسكي الذي أخذت عليه كثيرًا من الملاحظات في مجال الفكر واللغة، ولا سيما تشومسكي الذي بحسب التحليل النفسي لديه انزواء مرضي.

والذي وقفت عليه أنه ليس متابعًا للمتغيرات التفاعلية والثقافية، إما لأنه منطوٍ على ذاته بحكم الاتكاء على العقل المجرد، أو أنه تفوته أشياء كثيرة من المستجدات، لعله -أقول: لعله- لم يقدر على متابعتها.

وكثيرًا ما أنصح غالب من يزورني أو يتصل بي من المثقفين والعلماء بتمام أخذ الصورة والصور النفسية والعملية عما يريدون الكتابة عنه سلبًا أو إيجابًا؛ وذلك أن الحكم على الشيء فرع من تصوره، لكن إذا ظهر الأمر من أي أحد حكمنا عليه من خلال ما يقول.

ومن باب صلتي بالآداب العالمية والشعر واللغة، فإنني لست أعتبر (نعوم تشومسكي) ملحدًا؛ ففي بعض تغريداته أو ما يكتب عنه ما يدل على ذلك، لكنه نصراني يميل كل الميل لنظرية العقل المجرد؛ ولهذا يميل للانزواء المرضي والانطواء النفسي.

هو مفكر له آراء في الأدب واللغة والثقافة، لكنه- بحسب التحليل الدخيل- لا يصل إلى درجة سامقة كدرجة أندريه جيد مثلًا؛ بدليل أنه متخبط، هل يتعامل مع تويتر أو أن هناك من تلامذته ومنهم الأستاذ حمزة بن قبلان المزيني الحربي من يظنون أن تشومسكي لا يتعامل مع تويتر، وإن كان هناك حساب باسمه.

والحقيقة تبقى دائمًا بأن نظل واقعيين في مجال العلم واللغة والفكر دون تقليد لأحد، وهذا ما يجعلني ألوم الأستاذ حمزة المزيني.

من أجل ذلك توضع هناك في سياسة الدول مقاييس وموازين غاية في الحكمة والدراية والنباهة لكل مسؤول يتولى مسؤولية حساسة، أو تقرب منها بصرف النظر عما يكتبه هذا أو يكتبه ذاك من مدح أو تعطير أو ثناء؛ لأن هذا في حسبان سياسة الدولة النابهة لا يُعد شيئًا مذكورًا، بل ذلك الذي يعمل بصمت، ويجدد تجديدًا نوعيًّا غير مسبوق بصادق من القول وبصادق من العمل هو الذي لعله لبنة في جدار صلب، يتحاكم بنيانه، فلا يزول في مهب الريح.

ولهذا يكون على الدولة أن تعير البال لا على الناشط الكثير القول، ولا على ذلك الناشط بجاه أو مال، إنما الركيزة كلها في المحصلة الأخيرة تكون على شد عقد الصادق المجدد المتجدد، الذي لعل ركونه إلى الانزواء والانطواء إنما ذلك سجيته كعادة ذوي القدرات الفذة، تلك التي حكاها التاريخ عن الخالدين في السير وتراجم القادرين.

ولا ينظر في الموهوب في أي زاوية من زوايا موهبته وقدراته. أقول: لا ينظر إلى ما في النفس عليه من شيء بأي سبب من الأسباب؛ وذلك أن هناك شيئًا يجب أن يغلب شيئًا، بل أشياء، فإن ما في النفس على مثل هذا قد يكون جاء من سبيل خاطئ، أو من سبيل مباعد، أو من سبيل فهم شيء لم يعنِه ذاك، ولا يمكن أن يعنيه، كذلك قال من قال في مثل هذا على تطاول العهود.

العقل اللغوي الاجتهادي في الدولة الحديثة

العقل إنما سمي عقلًا لأنه يعقل تصرف الإنسان من القول والعمل، ومن العمل الإشارة بأي جزء من أجزاء البدن.

وقيل: العقل إنما هو ربط الفعل وتقييده وربط العمل إلا بعد تصور وإتقان.

وقيل: إن العقل أصله مأخوذ من العقال، وهو عقل الإبل.

قلت: والعقل أي العقال، وصف مطلق، فكل ما تم العقل به فهو عقال.

وقيل: إن العقل من حيث الاستقراء النظري التحليلي هو حسن التصرف.

وقيل: إنه سرعة البديهة.

وقيل: إنه قوة الشخصية العاقلة مع عدل ونزاهة.

وقيل: إن العقل حسن التصور مع حسن التصرف.

وقيل: إن العقل إنما هو حسن التدبير على البديهة.

وقيل: إن العقل إنما هو حسن النظر على أساس الموهبة.

والذي يظهر لي أن هذه من صفات العقل، ولكنها ليست هي العقل، ذلك أن العقل غريزة يهبها الله لمن يشاء من خلقه، وهو خاضع في أصله للإرادة، فإن كانت الإرادة ذات سبقٍ تربوي خالص نزيه كان العقل كذلك.

وإن كانت الإرادة ذات نزعة ذاتية مركزية مع ما يصاحبها من الدهاء وطول الأمل فإنه يكون وبالًا على صاحبه وعلى من معه.

لكن التعريف أنه مأخوذ من عقل الدابة؛ فهذا تعريف لغوي لم أجد في كتب الأقدمين خلاف هذا بحسب فهمي.

ومن هذا الباب، فإن النظر القضائي الجنائي والنظر العلمي التقعيدي وكذلك التحليل النفسي للآثار الظاهرة للعقل، وكذلك فيما يتعلق في البسط السياسي والعلاقات السياسية؛ فالعقل على أنواع سوف أذكرها دون إيضاح لها؛ لأن ذكري لها يتضح منه المعنى، وقد كنت أشرت إلى هذا في أحد المؤتمرات العالمية في أثناء حديثي عن القضاء الجنائي الإداري والقضاء الجنائي الأمني.

وكذلك ذكرت بعض ذلك في النادي الأدبي بمدينة الطائف عام ١٤٣٥هـ.

وعلى هذا الأساس فالعقول أنواع:

أولًا: العقل الموهوب المتقن.

ثانيًا: العقل البديهي.

ثالثًا: العقل التحليلي.

رابعًا: العقل الاستنتاجي.

خامسًا: العقل الإيضاحي.

سادسًا: العقل المتأمل.

سابعًا: العقل الواسع (المشارب).

ثامنًا: العقل المستدرك.

تاسعًا: العقل البعيد النظر من كل زاوية.

عاشرًا: العقل الذي يسبقه القلب.

حادي عشر: العقل الذي تسبقه العاطفة.

ثاني عشر: العقل المصلحي الضيق.

ثالث عشر: العقل المركزي الذاتي.

رابع عشر: العقل المحدود النظر.

خامس عشر: العقل الاستشفائي.

سادس عشر: العقل الناقد الذاتي.

سابع عشر: العقل الناقد الحر المطلق.

ثامن عشر: العقل العام المحيط لأساسيات إيقاع أو وضع الشيء في موضعه بنزاهة مطلقة.

تاسع عشر: العقل الحذر البعيد عن المركزية.

عشرون: العقل ذو النزعة المطلقة من خلال النظر والنتيجة وتوزيع الفرص.

وعلى هذا الأساس فإن هذه الأنواع قد تكون منفصلة بعضها عن بعض، وقد يجتمع اثنان في واحد أو ثلاثة في واحد، لكن المتأمل الذي يملك طاقة علمية واسعة وتحليلًا فطريًّا يدرك ما في ذلك شك أن كل نوع مستقل وكل نوع منها يحتاج إلى بسط ليس هذا المعجم اللغوي مكانه، وإن كنت قد ألمحت إلى واسع من القول في كتابي (حال المتهم في مجلس القضاء) وكذلك ألمح إليه البخاري في (كتاب العلم)، وكذلك ألمح إليه ابن تيمية حينما تحدث عن سياسة الإدارة وأنواعها وما تحتاج اليه وما لا تحتاج إليه. وكذلك ألمح إلى هذا الإمام القرافي وابن فرحون والآمدي وكذلك ألمح الى هذا ابن جرير الطبري وابن كثير وابن الجوزي؛ حينما فسروا سورة يوسف بواسعٍ من قولٍ متين.

وعلى هذا الأساس أزعم أن العقل بجانب كونه موهبة فإنه يمكن اكتسابه عن طريق كثرة التأمل في تماسك الخلق ونظام الكون وقراءة الحكم والأمثال وتجارب الذين لهم بصمة بالتاريخ بعدل تامٍ مبين، وهذا دون ريب نجده في كتاب الامام مسلم في (كتاب الأنبياء) في الصحيح، وكذلك عالجه بتعريفه اللغوي ابن منظور والفيروزآبادي واكتساب العقل أعني صفته ممكنة ما لم تصاحب أحمق أو عجولًا أو قريبًا حاسدًا أو منافقًا أو ذا مصلحة ذاتية ينزع إلى ذاته في قوله وفي عمله. وأغلب الظن أن قيم الجوزية قد جود القول حول هذا في كتابه الذائع الصيت (إعلام الموقعين).

ولا جرم، فإن ما قل ودل يقود الى المعاني الجليلة التي عن طريقها تعاد قراءة هذا الكلام مرارًا مع بسطةٍ في الوقت وقوةٍ في التأمل وحرارة في النزعة العامة المتجردة.

العلم مسؤولية الدولة

يعتقد كثير من العلماء من أهل اللغة والنحو وعلماء السياسة الشرعية أن علم النحو إنما نشأ في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهناك من قال: إن أساسيات علم اللغة أو أصولها إنما نشأ في عهد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهناك من قال: إن علم سياسة الشريعة فيما يتعلق بعلم الأصول بصفة عامة لا بصفة تفصيلية إنما نشأت في عهد الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ.

وهذا قد وجدته حتى لدن كثير من العلماء في العلوم الثلاثة بل لعل هذا أقيمت عليه دراسات علمية بل إن بعضها أخذ عليها بعضهم درجة الدكتوراه والماجستير.

ولعل حصول هذا يعود إلى عدم تأصيل المسألة من أساسها وعدم تقعيدها مع ضابط الاستعجال للوصول إلى النتيجة التي يسعى إليها الباحث اللغوي أو الباحث النحوي أو ذلك العالم في سياسة الشريعة.

وقد وجدت هذا مع أسف بالغ لدى بعض المجالس والمراكز والهيئات العلمية الرسمية والمستقلة.

وهذا مؤشر ما في ذلك شك على عدم سعة التصور وسعة الاطلاع في أصول وفروع علم اللغة والنحو والشريعة.

ومن باب العقل الاستقرائي من هذا الباب، فإن فاقد الشيء لا يعطيه؛ لأن الأصل في أصله الفرعي لا بد أن يعود إلى أصل كلي ينقطع حوله كل قول.

ولننظر قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] وهذه الآيه من حيث النظر العقلي المستقصي من أول معانيها سياسة علم اللغة ومفرداتها ونسقها المتحد في قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ ومن جهة أخرى فإن قوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ بضم الميم، فهذا يعني أساسيات علم النحو ذلك أن الإبانة إنما تتشكل من خلال تماسك الحروف واتحادها لتعطي المعنى الذي يحسن السكوت عليه، وهو الإعراب للجملة المرادة؛ ولذلك لم يقل تعالى: (بلسان عربي بين) بل قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مُّبِينٍ﴾ فجاء هنا المصدر الميمي ولم يأتِ الفعل، والمصدر أقوى من الفعل.

ذلك أن المصدر أصل المشتقات كذلك قال العلماء.

وما قام به عمر أو علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أو قام به الشافعي إنما جاء من باب الإعادة إلى أصول العلم دون ريب.

ولذلك نجد النسق الطردي في حالات كثيرة في العصر الحديث أن كثيرًا من الباحثين والأدباء والمثقفين ينقل بعضهم من بعض دون الإشارة إلى ذلك ببالغ من الذكاء متين.

وعلة هذا أن النقد اللغوي والنقد النحوي والنقد العلمي الذي بينته كثيرًا في كثير من المؤتمرات والندوات مفقود، وإنما الموجود إنما هو دراسات وبحوث للأعمال اللغوية والنحوية والعلمية الشرعية.

وسوف يستمر الحبل على الجرار إذا استمر الأمر على ما هو عليه.

وفي مؤتمر فاس في فندق قصر الجامعة حينما كنت أمثل وزارة العدل كنت قد خاطبت رؤساء الدول وولاة الأمر إلى ضرورة معرفة التقارير العلمية والشرعية وخاصة فقه النوازل وسياسة اللغه والنحو، وتطبيق النص على الواقع وتطبيق الواقع على النص.

إن بعض الذين يحاضرون في الجامعات في مجال اللغة أو النحو أو العلوم الشرعية إن كثيرًا منهم يلحن لعله من دون قصد، لكن هذا دليل على ما أذهب إليه، ولهذا تنحو كثير من الدول إلى إنشاء الهيئات العلمية والمراكز العلمية واللغوية لضبط أساسيات العلم وفقه النوازل من خلال الاجتماعات الدورية وحتى هذا أجد فيه كما أجد عليه كثيرًا من الملاحظات خاصه فقه الآثار والإضافات العلمية غير المسبوقة بحال.

ولا شك أن اللغة هي أرض العلم وأساسه التي يسير عليها؛ لأنها تعطي الباحث والمحقق والدارس ما لا يستغني عنه.

وهذا ولا جرم أمر يلزم منه من كثير من الدول إلى نظر تقارير هذه المراكز وهذه الهيئات من أجل أمور خمسة نظرتها بحسب تجربتي وقراءاتي.

أولًا: لقطع تكرار النتائج العلمية.

ثانيًا: لقطع الأساليب الإنشائية ومجرد النقل.

ثالثًا: لقطع تداخل الآراء والاجتهادات التي لا بد من تأصيلها وتقعيدها وإعادتها إلى أصولها.

رابعًا: لقطع التقليد مع إمكان الاجتهاد بحسب وسائله علمًا وعقلًا وفكرًا.

خامسًا: لقطع الاستطراد الذي لا حاجة له خاصة في هذا الحين.

وقد وقفت وهذا شاهد على ما أقول على من فسر سورة (ق) وسورة (التحريم) تفسيرًا يصعب علي نقله زمن باب التصحيح، فإني أبين معاني الآيات التي لعله يوقف عليها، وتكون سبيلًا للعلماء والباحثين في أصول مناهج التدريس والنظر والتحقيق.

ولم أزل على طلبي المراد هذا؛ لأن رفع التقارير إلى نخبة ممتازة من ذوي الريادة العقلية العلمية والعلمية العقلية المتناهية التأني وسعة النظر وتمام التجرد تعطي العلم باعًا غير مسبوق ما يضفي على العلم في الدول صبغة وصيغة التجديد النوعي غير المسبوق.

وهذا دون ريب من متطلبات التجديد العلمي والقفزات الحضاريه تلك التي لعلها لا تكون إلا في آحاد الناس؛ لأن في الزوايا خبايا لكن الدولة حينما تطلب التقرير من كل مجلس علمي ومركز علمي وهيئة علمية يعطي هذا تسابقًا محمومًا إلى التنافس أيها تبذل الوسع في التجديد النوعي في اللغة والنحو وسياسة الشريعة ونوازل المستجدات.

وقد جاء في الصحيح من سياسة النبي ﷺ العليا في سياسة الأمة وتوظيف الفرص وتخصيص المواهب والقدرات الفذة أنه قال: «أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ» «وأمين هذه الأمة أبو عبيدة» ودائمًا ما كان يقول ﷺ: «كنت أنا وأبو بكر وعمر، وجئت أنا وأبو بكر وعمر».

ومثل هذا كثير كما جاء في مطولات وأصول العلم وفروعه في سوالف العهود الخالية، وتبقى هذه السياسة منه ﷺ سياسة أصلية في تجديد الآراء والأطروحات العلمية لتوليد العلم الإضافي ومعرفة ذوي المواهب والقدرات وتوظيفها وإنزال كل عالم في منزلته بصرف النظر عن الشهرة ذائعة الصيت أو متوسطة الصيت؛ لأن العقل إذا كان ثقيلًا وجليلًا يقود صاحبه إلى شيء من الانزواء وعدم التكلف ما يصرف النظر عنه، فلا يكاد يعرف بين ما هو جبل أشم، وكما قلت آنفًا: «في الزوايا خبايا».

وهذه مسؤولية الذين يختارون الأفذاذ النجباء، وإن كان هؤلاء في حال من عدم الظهور والميل للانطواء من باب شدة التأمل وكثرة النظر والبحث في سياسة اللغة وسياسة النحو وسياسة علم الشريعة.

بقاء الدولة... أين يقع الإشكال؟

يقع لي في الدراسات السياسية والإدارية العليا ذات التخصص المتمكن الواقف على هذا دون سواه يتبين لي من ذلك كله أن الأصل إذا كان متينًا قائمًا على سوق صلب غير ذي عوج فإنه قل أن تؤثر فيه عوامل التأثير حتى ولو كانت هذه العوامل ذات دفع لا يستهان به. ذلك لأن القاعدة التي بني عليها الأصل أصل البنيان أساسه أنه لا يتزعزع لأنه إنما وضع أصلًا على هذا الأساس دون سواه.

قد يكون هناك فجوات يدخل من خلالها بعض ما يؤثر بالأصل أو بعض ما يؤثر بالقاعدة لكن هذا وذاك ليس بذي قيمة، بل لعل هذا يعطي بيان العوار في أصل البناء والبقاء للقيام عليهما من جديد، بحيث يصعب أن يكون هناك فجوات بعد ذلك.

ومن المعلوم بداهةً في الدراسات السياسية والإدارية والعلمية التطبيقية وكذا أصول القضاء الموهوب أن بعد النظر والتأني وكسب المخالف مهما كان والاستفادة من خطأ ما قد سلف أو أخطأ والحذر من الصديق خاصة ذلك الذي يميل لذات المصلحة الذاتية أن هذا كله يصب في تنبه لا شعوري دائم وغريزي لعدم تكرار الخطأ في أصل قواعد الدولة حتى تلك التي قد لا نعيرها اهتمامًا، وقد تكون هي في نفسها أصلًا لا يحيد عنه الواقع.

ولا ضير أن جلب ما كنت قد دونته في مذكراتي الباكرة خلال تجواسي الديار لزيارة أو حضور مؤتمر أو ندوة أو شراء كتب قد تكون نادرة أو هي مخطوطة،

فأعزم على تصويرها وجلبها، وقد كتبت هناك بعد قراءة أكثر من كتاب اختلفت موضوعاتها كتبت: (حينما تظهر حالٌ عصية وحالةٌ أقل منها فإنني أبدأ بالأولى مع ملاحظة ومراقبة الثانية، فقد تكون الأولى إنما ترعرعت في حوض الثانية، ثم انظر ما يأتي:

١- حقيقة وصل هذه الحالة.

٢- نوعها ومن أين جاءت.

٣- كيف حصلت مع شدة التوقي والحذر من العاطفة.

٤- هل لها شبيه أو أشباه.

٥- نظر الطرق الموصلة إلى الحل ولو طال الوقت.

٦- دراسة هذا على نطاق شخصي وسري لا يطلع عليه إلا ذوو الاختصاص الدقيق.

٧- مراجعة الحل النهائي مع سعة البال وإطالة الوقت وترك هذا الحل وقتًا كافيًا ثم العودة إليه.

وقد طبقت هذا خلال أربعة أعوام على هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأذكر أنني نقلت ١٧ رئيس هيئة إلى مكان آخر يناسب كل واحد منهم لعدم وجود الموهبة وثلاثة من المحققين لأنهم يصلحون رؤساء هيئة ليس إلا.

ولم أستعجل لبعض الشكاوى ضد بعضهم، فلما تمكنوا من العمل وصورته أجادوا وأفلحوا مع أن بعضهم قد تململ من تصرفي لكنهم حمدوه بعد ذلك، وهذا ينصب لا على تجربتي في الهيئة أو القضاء النظري والتطبيقي أو السياسي من خلال قراءتي وسفرياتي لكن ذلك ينصب على طبيعة الدولة، وجديرٌ بالذكر

أن الخطوات التي ذكرتها فاعلة إذا أدركنا أن تطبيقها عمليًّا يتبين منه ضرورة التفعيل وشدة المتابعة.

وهنا أعود إلى أصل مفردات هذا المعجم، فأذكر جزءًا مهمًّا لعله يفيد ويجدي، فقد لاحظت تداخلًا بالفهم ما أوقع كثيرًا من اللغويين النحويين في تشابه الأشياء ما بين الحرف والمعنى.

أولًا: بقي دام.

ثانيًا: بقي لم يزل.

ثالثًا: بقي استمر على شيء أو على أشياء.

رابعًا: بقي يراد بذلك انتظر أو هو ينتظر.

خامسًا: بقي بمعنى ظل واقفًا أو قارئًا، وقس على ذلك من الأشباه والنظائر.

سادسًا: بقي يبقى لم يزل على أمرٍ قد يتركه أو يستمر عليه.

سابعًا: بقي بمعنى ساد، وهذا ضعيف.

ثامنًا: بقي يراد بذلك بقي يفكر أو يُعمل التفكير على شيءٍ معين.

تاسعًا: يبقون يظلون على حال سهر أو قراءة وقس على ذلك.

عاشرًا: تبقى وهذه لفظة للمؤنث، ويدخله الاشتراك اللفظي؛ لأن هذا قد ورد عن العرب كثيرًا، ولا سيما في خطبهم، وحكمهم، وأمثالهم، وكذا الشعر، بل قد ورد في الآثار الصحيحة عند كبار العلماء كأصحاب الكتب الستة وسواهم.

ومن المعلوم أن (الواو) من الحروف المتعددة المعاني بحسب موقعها، وقد ترك كل الباحثين أن من معاني الواو (القطع والإلزام) وذلك مثل واو القسم وواو التأكيد وواو الفعل الموجب للقيام به.

واصل (الواو) للفصل بين الاسم والجمل الموصولة أما الواو الداخلة على الاسم الموصول بحسب المراد المقتضي لذلك.

وكم أقدر للدكتور الصاعدي وزملائه جهودهم لكنني أوصي دائمًا من أحب له الخير أن يتسع باله، ويأتي على حقيقة التأصيل والتقعيد والتأني ولو لم تظهر النتيجة إلا بعد حين طويل.

الدولة والموهبة والمسؤولية اليوم (١)

ليس بوسع المرء خلال الدراسات المتمكنة الطويلة ذات الأبعاد العلمية البحثية أن يكون قاضيًا ما لم يكن لديه ذلك الاستعداد النفسي والاستعداد العقلي، حتى لو درس، وحقق، ونظر العلم زمنًا طويلًا.

ذلك أن حقيقة الأمر عبر الدراسات والبحوث المتخصصة أن الموهبة في هذا السبيل أصل لا بد منه.

وأجزم -وليس هناك منافح- أن هناك فرقًا شاسعًا بين من يحكم ويجلس للقضاء ويفصل في الخصومات، وذلك الذي يحقق ويكتب ويقرر. وهنا لا يتفق هذا وذاك بحسب السبر ودراسة الأحوال. ولا شك أنه عند التحليل العلمي الدقيق والإجراء النفسي الطويل الجيد والمتين من يحكم ويفصل في الخصومات ويزاول القضاء في مجلس القضاء إذا كان موهوبًا فإن الموهبة تستعدي ما يحتاج إليه جميع من أمر.

ذلك أن هذه الموهبة لها قدرة في أغوار النفس وعمق العقل على النظر المدرك الواعي بحيث القاضي يحكم من خلال الدهاء السليم وسعة الفطنة وقدرة الإدراك لما بين يديه، واستدعاء دلائل الآثار والنظائر والأشباه بواسع من عقل فطين.

وما كثرة الاطلاع وتدبر العلم والاستشارة إلا من الروافد. وكم ذكرت لطلابي في الدراسات العليا وخلال الندوات العلمية الدقيقة مثل هذا، وأنه لا بد

من الموهبة؛ لأنها تعطي صاحبها من الوعي وصدق النظر وقوة القياس الصحيح الشيء الذي لا يكاد يفطن إليه إلا النوادر من المتابعين من الساسة ومن تعنيهم هذه الحال.

ولا يحسن الخلط هنا، وأكرر هذا دائمًا بين قوة الحضور والمتابعة وحب الخير والحرص عليه، والموهوب الذي يجلس في القضاء؛ ذلك أن عادة الموهوب -وهي سجية غالبًا- لا ينفك عنها التواضع حتى في السكن واللباس وبساطة العيش، وحتى وأنت تحادثه تظن أنه عادي الحياة بين الموهوب الفاصل والقاطع عن احتدام القضايا وتزاحم الأمور بصرف النظر عما يقال عنه من وشاية خاصة من القريب أو من الزميل. يقول أبو جعفر المنصور: إنا لا نسأل القريب عن قريبه، ولا نستشيره ولو كان وجيهًا.

ومن العجيب في مثل هذا -أعني الموهوب- إذا تهيأ له الجو أنه يستطيع النظر في خمس حالات قضائية في يوم واحد دون تأجيل أو معاودة، وله من قوة النظر وسعة العقل واستنطاق الحال ما قد يخال للحاضر أو يخال للسامع أنه ضرب من الخيال، بين ما ذاك حق لا مرية فيه.

واستكشاف هذا النوع صعب جدًّا. المشكلة هنا كاملة في الخلط بين حال وحال، وصفة وصفة.

ولهذا يحرص الساسة عبر القرون على القبض على هذا النوع دون نظر على حب له أو كره له؛ ذلك أن الموهوب ينفع ولا يضر، يعطي ولا يمنع، يبذل ولا يقصر، يحذر الحذر كله من مخالفة ولي أمره في حالاته كلها نشدانًا لحفظ الأمن وسيادة الطاعة وصدق الولاء وتحريه.

ولعل مثل هذا، فإن العبرة فيه في كيفية مثل هذا لا في كميته. وكنت أنوه عن هذا كثيرًا عند اختيار القضاة من سنة ١٤٠٠ إلى سنة ١٤٠٣هـ حينما كنت مديرًا للشؤون القضائية بوزارة العدل قبل أن أنتقل إلى عملي العالمي الحالي.

وعودًا على بدء، فإنني أبيّن هنا في هذا المعجم ما يربط اللاحق بالسابق لبيان ألفاظ لا بد أن أبينها على وتيرة، يأخذ بعضها برقاب بعض في هذا المعجم الطويل.

فمن ذلك أولًا: قضي الأمر بضم القاف وفتح الياء. قطع بضم القاف كذلك.

ثانيًا: قضت عليه، أتت عليه، أكلته دابة الأرض.

ثالثًا: قضيان الحاجة بتشديد الياء وهي لهجة مغربية، والمراد اقضِ لي الحاجة.

رابعًا: قضيها لي بتشديد الياء هي لهجة يمانية بمعنى اقضِها لي.

خامسًا: ما نقضاها وهي لهجة على لسان أهل اليمن بمعنى لا أريد قضاءها.

والقضاء ما قضاه الله تبارك وتعالى أيًّا كان. وهذا مع القدر من أركان الإيمان.

سادسًا: وقضى بتشديد الضاد أخت الصاد بمعنى هدم وأزال، وهذه لغة قليلة.

سابعًا: وأصل القضاء فيما حكاه الإمام منصور بن يونس البهوتي في الروض المربع ج٢ ص٤٧٢.

«إحكام الشيء والفراغ منه».

قلتُ: ولعل البهوتي أراد إحكام الشيء هو ضبطه، ووقع الشيء في موقعه، لا يحيد عنه. وهذه هي تقديري العلمي، هي الموهبة الفذة، وهذا لا يتأتى لمن فقد الموهبة إلا بعد طول نظر شديد ومقايسة صادقة وعقل قوي سليم وطول تأمل. ولو ظهرت النتيجة بعد حين، ولعله قد يصيب.

ولعل ضابط هذا كله هو الهدوء والثقة في النفس دون تردد، وقوة مراجعة وتقوى وورع.

الدولة والموهبة والمسؤولية اليوم (٢)

في الدراسات العلمية المعاصرة والتحقيق الاستقصائي الذي قمت به يتعلق الصبر بصفة من صفات العقل السياسي الواعي المكين؛ ذلك أن قوة الملاحظة وحسن التصرف يأتي بعدهما حسن التصور. هذا جزمًا هو عين التأني الذي يبثه العقل الفطن إلى الأعضاء لا شعوريًّا بعدم نقاش شيء ما، أو نقد أو رد حتى تتبين الصورة بل حتى تتبين الصور كافة، تلك الذي يحسن نظرها بعين فاحصة شفافة مجربة من خلال الموهبة السياسية المسؤولة، ثم وضع الحال أو إن شئت قل الأمر موضع الاستشارة، ثم التروي بعد ذلك ومراجعة الوضع مرارًا، وبذل الحكم إنما يأتي بعد حين مع جعل الباب مفتوحًا؛ وذلك لإمكان العودة إلى ما قد يكون قد خفي أنه صواب، فوضعناه موضع الخطأ.

والعقل السياسي في منظومة الدولة، وكذلك العلمي مع العقل الاستقرائي، إنما كلها تصدر عن عقل واحد، ولكن تعددت حالاته بحكم التصور المكيث قوي التجربة شديد التأمل الذي قد تم ولاؤه.

لا يمكن بحسب تجارب العصور الخالية، تلك التي قامت وقام بعدها ما قام من دول وحضارات، لا يمكن أن يكون الضعف سببًا موجبًا لحال ما من حالات التدهور، بل لعل من الأسباب في كثير من الدول هو سوء التصرف أو العجلة، أو دفع كل ما في الجعبة من قوة وأسرار تجاه من يراد صده أو رده؛ فهذا -دون شك- يكشف الأوراق أمام من يراد ألا يعتدي.

لأن تبيُّن الصورة لديه قد وضح، فيضرب من حيث لا نقدر أنه يضرب في مكان نقطع أنه لا يمكن أن يضرب فيه.

وهذا سبب جيد يبيّن حالة واحدة من حالات كثيرة، يحسن أن تولى بالغ الاهتمام حيال من يراد أن يتوقف عن الخطأ، ولو عن طريق التعريض في الدول المناوئة فهمًا منها أنه لا يُعرف أمرها.

ولهذا جعل أبو جعفر المنصور -واسمه عبدالله- من الناحية الأمنية الداخلية جعل كل من يشك فيها على لائحة عقله لا لائحة قلبه حتى تبين له بعد دهر أن تسعة أعشار من شك فيهم ليسوا إلا حالة لا شعورية، دفعه إليها بالغ الحذر الزائد؛ فكان أن قرب الكثير وولاهم.

ومن الناحية الإستراتيجية تلتقي السياسة مع الأمن في سياق واحد، كلاهما يغذي الآخر.

أقول: ولهذا اعتبر المحققون ونقاد التاريخ والتراجم أن أبا جعفر هذا هو المؤسس الثاني للدولة العباسية، وحينما أبسط الحكاية كلها نجد أنه أبعد بدهاء وقوة كل من أراد السوء أو الإثارة أو العبث؛ فهابه الصديق قبل العدو، وكانوا من القلة بمكان، يخالف ما كان يظنه أنهم كثرة، حصلت بسبب وشاية أو كره طبعي أو حسد بين قريب وقريب، أو صاحب وصاحب، يجمعهم العمل الواحد.

وفعل ذلك هارون الرشيد، ويمكن هنا من حيث إرادة سعة النظر مطالعة بحاذق من النظر كتاب (تاريخ دمشق) لابن عساكر.

لست هنا أعالج وضعًا واحدًا كالإدارة مثلًا، أو الاقتصاد، إنما جل اهتمامي -ولا جرم- ينصب على أصل ما يجب نظره مما يمكن معالجته في ظهر وفي فقار أي دولة، وفي الإدارة مثلًا إنما هي نتاج. أقول: إنما هي نتاج إذ التطرق إلى أصل الكيان هو بالغ ما أرمي إليه في أطروحاتي كافة، وغاية ما أقصده.

ولهذا يمكن معالجة (جرثومة المعدة) بشيء من الحرص المتين، وندع شوكة في يد أو رجل إلى حين.

لأن الاهتمام بالأهم المؤدي إلى تدهور البدن كافة أولى من الالتفات إلى ما يمكن إبعاده بظفر أو إبرة على حال سريع.

وهذا إنما هو مثال أضربه لضرورة النظر في حال دون حال، وأمر دون أمر، وواقعة دون أخرى. وتفصيل مثل هذا بواسع من القول والتحقيق والأمثلة ليس هذا موضعه في هذا المعجم، ولكن الحصيف من المعنيين يدرك ما أرمي إليه وما دعاني إليه من الحرص على بذل الرأي المكين؛ وذلك لسيادة الأمن والسياسة في آن وكل آن.

وعودًا على بدء، أبيّن مفردات تخص المعجم التي أحتاج إليها ويحتاج إليها غيري؛ ثلة كثيرة من العلماء والمحققين:

أولًا: أصل الصبر أنه ثلاثي (ص ب ر).

ثانيًا: صبر يراد بذلك تحمل على صفة العموم؛ ولهذا يكون هناك فرق بين الصبر والتصبر؛ فالصبر قد يكون ضرورة؛ إذ لا حل إلا به في بعض المواقف.

أما التصبر فهو الذهاب إلى التحمُّل مع إمكان عدم ذلك.

ولهذا كان التصبر من صفات العقل، لا من صفات القلب أو صفات العاطفة.

وإذا كان الحلم بالتحلم فالصبر كذلك عند الواجب إذا واجهك أحمق أو معاند أو قريب حاسد أو صاحب مثله كذلك، أو من لا يقدرك حق قدرك، وهذا من سياسة الفطنة والدهاء.

ثالثًا: والصبر بتشديد الصاد قوة التحمل على ما لا يقدر عليه (بضم الياء).

رابعًا: وصبر ويصبر وتصبر؛ أي تحمل ما حصل إلا إذا كان الصبر عجزًا مع عدم القدرة على الدفع، فهذا يدخل في باب العجماوات.

خامسًا: الصبر أصل من أصول الحياة، ولا سيما أنه يمكن أن يتلبس بالدهاء وسعة الحيلة والانتظار.

سادسًا: والصبر بضم الباء في الثانية إنما يراد هنا تحمل شدة المرارة لعلاج ما يشتكي منه الإنسان؛ إذ الصبر بكسر الباء علاج جيد لبعض الأورام، وفيه نفع -بإذن الله- لكونه يطرد الرياح المستقرة في البدن، وهي بخلاف الغازات، فلعل هذا أخذ منه ذاك. وجاء عند الأقدمين: «لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا» بكسر الباء، والصبر ميزة جيدة أخذ به العقلاء والعلماء البررة، بل إن الله جَلَّوَعَلَا أوصى به رسله عَلَيْهِمُالسَّلَامُ قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وعاقبة الصبر وشدة التحمل محمودة الأثر وطيبة النتيجة، ولا يكاد يصبر إلا من وُهِب فهما وقوة عقل وسلامة روح، ومن صبر ظفر.

حماية العقول وبناء الولاء في الدولة المعاصرة

دلت الدراسات العلمية المتنوعة التي وقفت عليها خلال نهضة الدول منذ أقدم العصور كما دلت البحوث الدقيقة في علم الطباع أننا حينما نسمع عن شخص ما أي شيء من سوء القالة في شخصيته أو في عرضه فإننا هنا إن قبلنا ذلك ونجح لدينا صدق تلك القالة أو إن ترددنا في ذلك وكرهنا ذلك الشخص أو حصل لنا في أنفسنا عليه شيء فإننا حينئذ ننزع إلى العاطفة، ونحاكم القول من خلال القلب كما أننا نتصف بالعجلة وإنشائية الحياة في غالب وجهات نظرنا وهذا النوع من الناس قد يكون لديه نوع من حدة الطبع ولديه إحساس بالطموح، ويسعى كذلك جاهدًا إليه مع شيء من العجله لا تلوي على شيء.

وهذا الصنف من الناس يكون على حال شديدة من الندم لا تريم خاصة إذا كان هذا النوع من الناس سببًا أو من الأسباب المؤلمة للشخص الآخر، حيث لا يكفي الاعتذار ولا الندم لصعوبة ذلك عليه من خلال تغلب العاطفة على العقل على طول المطال.

وغالب من يرمى (بضم الياء) إنما يأتي من النساء ثم أهل بيتها ثم هو رويدًا رويدًا ينتشر إلا أنه يزول ويبقى بعد ذلك عذاب الضمير ممن فعل ذلك أو قاله.

وهذه صفة من صفات عدة يتحلى بها بعض الناس من أولئك الذين يميلون لاستقبال القيل والقال عن طريق القلب والإحساس المغلف بشغاف العاطفه ليس إلا.

ناهيك أن حب كثير من الناس لهذا يسبب ذيوعه ولا سيما الغالب يروي الكلام على علاته.

ولهذا تحمي كثير من الدول من خلال عقلائها الكبار العلماء المبرزين البعيدين عن حب الوجاهه بشيء من الحماية الظاهرة بل وتوليهم العناية والاحتواء ولا سيما هذا النوع من العلماء يميلون للانطواء ومحاولة الابتعاد عن الظهور.

وهذا يعطي فسحة من أمل كبير حتى تتضح الصورة جلية؛ لأن حماية هؤلاء خاصة من قريب أو صديق أو زميل يبين حقيقة أهدافهم.

والذين خلدهم التاريخ بعد دهر أو دهور إنما كان هذا بعد تحليل وتمحيص لوجهات نظرهم على المحك العقلي السليم.

ولعل من الذين حملوا نوبل وغيرها من الجوائز إنما كان هذا بعد الحماية لهم حتى وإن كان لبعضهم وجهات نظر قد لا تقبل لكن بعد تمحيص تبين أنهم كانوا في موازاة الحسد وقطع الطريق عليهم من قبل كما قلت آنفًا قريب أو زميل.

وهذا نوع ثانٍ لديه من الحذر وشدة التوقي والخوف ما يحول بينهم وبين التصديق أو التردد هؤلاء غالبهم يتحاكمون إلى العقل العميق وصوت الضمير الحر، فيحول هذا بينهم وبين الوقوع بسوء الظن.

وإذا مرت خاطرة عن هذا دافعوه بخاطرة أخرى عادلة نزيهة، وإن كانوا لا يحبون ذلك الشخص، فيتبين من خلال ذلك بعد مكث أنه في النزاهة من الراتعين.

وتقل عند هذا النوع الشفاف الجيد الرؤية بحسب تجربتي الأمراض خاصة الشائعة كالسكر والضغط وأملاح الدم وفقره.

من أجل ذلك كذلك كان ساسة الدول يكرهون الصنف الأول، ويسوسون الناس بشيء من شفافية العقل الرزين.

وينظرون إلى ذات الموهبة وقدراتها.

وقد أجمل جملة من المؤرخين هذه الرواية.

جاء هناك، أن قاتل زيد بن الخطاب شقيق عمر بن الخطاب يوم معركة اليمامة، وكان القاتل -حينذاك- مشركًا، وفد إلى عمر مع جملة ممن أسلم.

فقال عمر: أنت قاتل زيد؟

نعم، يا أمير المؤمنين.

والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم.

يا أمير المؤمنين أو تمنعني لذلك حقًّا؟

كلا.

لا ضير إذًا إنما يبكي على الحب النساء.

وقال هارون الرشيد: من أسأت الظن به لقول أو أقوال لوجدت عليه ولنبذته على سواء ولكن حيفًا مني إن رددته عن طلبه الشيء مني، أو كما قال.

وأزعم لعله (تشرشل) قال في مذكراته: (لو كنا تركنا كلما يقال عنهم ما يقال لما قمنا بركوب صهوة الخيل).

وهذا يجرني إلى أن الملك عبدالعزيز وهو أجل الملوك كان لا يفرق بين عدو وصديق، وكان ينظر إلى ذات المصلحة المطلقة لحفظ البيضة وأصول وقواعد بناء الكيان حتى أحبه هذا وذاك.

الدولة بين السياسة والتوطين... كيف الحل يكون؟

لا يتسع القول هنا كما لا يتسع القول هناك أن يقال بضرورة معالجة المشكلات في وقت واحد وفي عجلة من الأمر.

لا يمكن فعل هذا والعالم الآن -وإلى أي مدى لا أدري؟- أصبح أشبه (ما يكون بالقرية الواحدة)، وقد تعددت -ولا جرم- التقنيات المتطورة؛ فلا يمكن الحد من شيء يريده أحد ما بالغ ما بلغ الأمر.

وإذا كان الأمر كذلك فإنني من هذا الباب وفي دراساتي السياسية والإدارية يمكن التحسين من الوضع الذي يراد التنبه إليه وإصلاحه، وذلك بالقيام بعملية التحسين إستراتيجيًّا عملية علمية ونفسية في آن. هذا أقوله إذا أُقيمت العملية وفق منظور بالغ الدقة والشفافية ودوام الملاحظة.

ولكي تتضح الصورة جليًّا -وهذا مما يجب إيضاحه- فليس علي إلا ضرب المثال، وهو مثال واقع، وليس هو بخافٍ إلا على من لم يتعمق بسيرة الحياة المعاصرة سياساتها وأحوالها الدقيقة. وكنت أنحو باللائمة على كثير من زملائي في كثير من المؤتمرات والندوات؛ وذلك لعدم استيضاح الحقائق ببسط وصراحة من القول على حقيقة يحسن أن يسار عليها.

والمثال الذي رمزتُ إليه خذ مثلًا له بقرية أو قريتين أو ثلاث من القرى هذه أو تلك يظهر منها التشغيب والإثارة التي تصل إلى زعزعة الحال بحال من المداومة على هذا بين حين وحين.

وهذه القرى إنما هي ضمن محيط عام في داخلها قرى ومدن ومصالح وسيادة واحدة مطاعة.

لا شك أن هذا أمر فيه قلق وترقب، وقد يكون فيه تخوُّف، وهذا من الصحة بحيث لا يمكن رده، فكيف تراني أتصرف كسياسي أو أمني يعود الأمر إليّ؟

الذي يجري مكشوف نعم، هو مكشوف لكن قد يحصل أمر فجأة، فنعيد الموازين دراسة وتحليلًا وحيثيات ووجهة نظر... إلخ.

لكن الحال تستمر في هذه القرى مثلًا... تستمر. هنا لا بد من أن تتحرك الدولة -أي دولة- بواسع من الدهاء متين، وبواسع من سعة الحيلة والشعور بالمسؤولية لوضع الرد من الاستعداد له قبلًا عند الموجب له.

فلكي ينتهي هذا من هذه القرى أضع في الحسبان أنه من لوازم الحل، وليس هو كل الحل أن أضع في الحسبان توطين بعض العلماء، وتوطين بعض المهندسين والمدرسين وبعض التجار، كذا أفعل من موقع مسؤوليتي المطلقة. نقل بعض الطلاب مع أسرهم إلى تلك القرى، ويتم قبل ذلك أن يكون المدركون منهم يدركون الهدف وليس الكل؛ ذلك أن الهدف هو الاندماج بأريحية وأخلاق وشدة ولاء واعٍ لولي الأمر للتأثير في الحياة علميًّا وتعليميًّا واجتماعيًّا... إلخ، مع بذل الخلق الواعي.

هنا قد يتأثر الوضع قليلًا قليلًا، لكن ما علينا؛ فلا بد من الاستمرار على هذا المنوال، والإصرار وسعة الحيلة وحسن التوجيه والتدبير، مع التغاضي عن صغار المنغصات غير الحساسة؛ لأن هذا (عدم التغاضي) يجلب التنبه من هذا التوطين والقصد منه؛ فقد تنقلب الموازين، وقد يصعب علاجها إلا ببالغ من شق الأنفس كبير.

ولكن هذا يحتاج إلى ورش من العمل متطاولة؛ حتى يتم الأمر على حال مُرضية، ولو بنسبة معقولة.

وليس من اللازم أن يبلغ الأمر محله، لكن يكفي قليل هذا عن كثيره.

وقد نجح هذا في كثير من الدول عبر القرون، لكن بحسب صور مختلفة، فضلًا على أن بعضها تجملت بالصبر الواعي العميق مع شدة اللؤى وكثرة المخاوف، لكن تم -بحمد الله تعالى- شد رباط السيادة ونبذ الآراء والتشويشات التي كانت قد تفعل عجبًا لولا لطف الله تعالى.

وفي مقدوري أن أستعرض في هذا المعجم من هذه المجلة ذائعة الصيت الصور والأمثلة على كثير مما كان، ولكن المساحة ضيقة، إلا أن من يكرر القراءة بواسع من التأني والاستنطاق يدرك ما قد يغنيه عن نظر المطولات والقصص والأمثال والأفعال في حضارات خلدت وبقيت: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

أبدأ الآن بشيء من بيان مفردات السياسة التي لعلها تجدي وتفيد، وهو ما يخص هذا المعجم:

أولًا: ساس.

درب وراقب.

ثانيًا: ساس.

علّم (بتشديد اللام)، وهذا ينصب في غالب معنى على الخيل والجوارح من الطير.

ثالثًا: ساس.

بيّن ووضّح حقيقة ما يريده من سياسة القول أو الكتابة.

رابعًا: ساس يسوس.

علَّم غيره، وقام عليهم بالولاية المطلقة.

خامسًا: تُساس.

بضم التاء تعلم وتدرب بضم التاء في المفردتين، ويقام عليها، وهذا مثل الرابع.

سادسًا: السياسة.

أصلها من المستجدات في العلاقات، وأصل معناها بحسب قراءاتي: «فن الممكن مع صدق التوجُّه والدهاء الواعي».

وأصل السياسة إحسان العلاقة وتحسينها بواسع من الفطنة وتبادل المصالح والاستفادة وتبادل الخبرات دون غمز أو لمز أو إثارة.

وأصل السياسة -بحسب فهمي- ألا تتدخل دولة بشؤون دولة أخرى ما لم يتم استشارتها على وجه من الوجوه.

سابعًا: ساسهم.

قادهم ورتبهم، ونظر أمرهم، وقام عليهم بحكمة وعقل وعدل مبين.

ثامنًا: يسوس نفسه.

يقوم عليها لتحسين حالها وأخلاقها وأعمالها.

الفكر والبغي

الفكر... الألف واللام دخلتا على نكرة، كان يجب أن تعرف بتشديد الراء لتحديد مسار المعرفة لتدل على شيء معين، والفاء والكاف والراء أصلية في تحديد المعنى العام، وهذا يجعل هناك اختلافًا كبيرًا بين الفكر وبين الفهم.

فالفكر من فكّر يفكّر، والفهم إنما يكون بعده شيئًا فشيئًا بحسب مدارك الأشخاص.

وفكر وتفكر ويفكر كل لفظه لها معنى يختلف عن الآخر، فهو إذًا يتأمل الشيء يفكر فيه ليعطي ما يراه وليبذل ما بان له، وهنا يأتي الفهم بعد ذلك تبعًا له.

وفي القرآن الكريم يتفكّرون المراد به يتدبرون من خلال العقل السليم لا من خلال القلب فقط أو من خلال العاطفة فقط أو ما قد يكون يملى على الشخص أو يوجه به إلى شيء قد لا يفهمه أو قد يفهمه بحسب توجيه غيره له.

وهذا فكر فلان يراد هذا رأيه وبينهم العموم والخصوص من وجه واحد.

ورأى ويرى يذهب إلى ما يفهمه من خلال تدبره لأمر ما وعور المسألة أن ما من فكر عن طريق عقله المجرد من أساسيات التدبر الصحيح السالم من العوج، ثم هو يعجز بحسب طبيعة القصور الجبلية، فإنه هنا يقع في دائرة مصيدة حيل النفس، فيفترض افتراضات تخيلية تحيل فكره إلى الإعجاب بما يراه أو يسلك سبيله، ومن هنا تبدأ بوادر الإلحاد النظري التي يصاحبها غالبًا الجسارة

والمعاندة والإصرار مع ما يصاحب ذلك غالبًا من قلق خفي وكآبة خفية وصراحة لا أصل لها.

إذًا فالفكر سابقًا الفهم، إذ الفهم نتيجة له قد تظهر سراعًا، وقد تبطئ، وذلك بحسب وضوح الرؤية مع توافر مستلزماتها، ولهذا جاء بالقرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥] المراد أن الله يوضح له جَلَّوَعَلَا سبل الهداية العقلية والقلبية على سبيل واضح قويم لكنهم يصرون على الخطأ لسبب ما من الأسباب منها حب الرئاسة مثلًا وشيوع الصيت، ومنها حب الظهور ودوام الذكر ومنها المعاندة لا شعوريًّا ولهذا قد يقف القريب في وجه قريبه حسدًا له إذا كان أعلم منه وأجود في مسائل العلم حتى يكون هو الظاهر المعروف، وقد يستغل غيره من صغار الجلساء إليه أو المتصلين به ليقدحوا في قريبه في علمه مثلًا حتى يبقى مذمومًا وهو العالم المعروف بينما يفهم العقلاء من الناس الخطأ من الصواب والحق من الباطل، ويستطيع العقلاء من العشيرة وغيرها التمييز بين هذا وذاك ولا سيما من أهل ذوي السلطة المدركين لأبعاد الأمور وعمقها وسورة (يوسف) بيَّنت هذا وكذا سورة (النور). وحبذا تدبر سورتي براءة والأنفال بشيء من شدة التدبر والعمق والمعاودة لهما.

نقد عرض الكتب الثقافي والعلمي

جرت العادة في إهداء الكتب عند كثير من العلماء والمثقفين والكتّاب منذ ظهور الصحافة العلمية والثقافية بشكل عام أن يكون الإهداء على سبيل التقدير، أو أن يكون على سبيل الملاحظة والرأي، أو أن يكون على سبيل الرغبة في الإطراء والعرض والبيان، أو على سبيل كتابة المقدمة أو أن يكون الإهداء من أجل تحقيق الآثار والبيان الصحيح منها والضعيف وكذلك حقيقة الاجتهاد العلمي، هذه غالب أسباب الإهداء.

وسوف يتبيّن من النماذج الآتية شيء ليس بالهين ولا سيما ما كان على سبيل الإطراء، وهذا النوع شائع جدًّا بين كثير من العلماء والأدباء واللغويين وكتّاب الزوايا والمشكلة في هذا النوع أو إن شئت قل العيب أن بعض من يطالع العرض لهذا الكتاب أو ذاك قد يقبل ما قيل فيه مدحًا وثناءً على مصنفيه أو جامعيه، فيصيبه العمى عن عيوبه ومثالبه ولا سيما أصول الأخطاء التي يقع من يحرر ويكتب ويعرض فيها.

ومن هنا يزداد أو قد يزداد غرور المصنف، وإنما يقع اللوم كله على من عرضه وكتب عنه مدحًا وإطراءً.

ودوري كناقد علمي أن أبين بعض النماذج لتحرير العلم والثقافة مما قد يؤخّر مسارها للوصول إلى التجديد والإضافات غير المسبوقة ولا سيما ونحن في وقت أشبه ما يكون بالقرية الواحدة.

فخذ مثلًا هذا النموذج: «أهداني أستاذي كتابه (...) وقد استعرضته كعادتي لكن ما أوقفني هو ندرة ما قد أورده أستاذنا الجليل من آراء جيدة تستحق الإشادة والتنويه» و«قد كان أستاذنا القدير يدرسنا أيام الطلب وكان بمثابة الأب والمعلم لا نخالفه في شيء».

ماذا ننتظر من هذا العرض؟ وماذا نستفيد؟ وماذا نأخذ؟

الجواب: لا شيء، نعم، لا شيء، فكيف مثل هذا يكون؟

وخذ مثلًا آخر: «هذا كتاب صدر عن دار (...) للناقد الكبير (...) وحرّي به أن يكون فتحًا جيدًا للآلية النقدية مع أنه عُرف عنه سعة الاطلاع على المدارس النقدية المعاصرة، وهذا الكتاب قد آتى بما لا يدع شكًّا أنه لا يحتاج إلى دراسة ولا تعقيب».

ماذا يريد هذا العارض لهذا الكتاب؟ هذا العارض الذي خلط بين النقد وبين بذل الرأي فقط كان بعيدًا كل البعد عن تحرير وجهة نظر سديدة نستفيد منها، ويستفيد منها صاحب الكتاب.

وبهذا تختلط عند الناس كثير من المفاهيم والآراء، بل ومن نافلة القول فلعل بعض من تُعرض كتبه يعطَى هالة ليست له، وهذا سبب وجيه لغياب التأصيل والتقعيد ما يؤدي إلى طغيان الأساليب الإنشائية، ومن هنا تسقط الثقافة شيئًا فشيئًا، ويتضاءل العلم ومن هنا يضيع أمر العلم أيضًا بالنقد كما يشتبه النقد الموهوب غير الموجود بالأساليب الخطابية المثيرة والمعاندة، وهذا معلوم من واقع الحال بالضرورة، فما عليك إلا القراءة بتدبر وعمق صافيين متجردين لتجد أنه لا يمكن الرقم على الماء كما جاء في أمثال الأقدمين.

وهاك نموذجًا آخر: «ليس ابن مالك إلا قد أخذ من غيره دون التنويه إلى هذا، وليس لابن مالك في ألفيته النحوية إلا العرض فقط».

هذا كلام جاء على علاته وبجرأة شديدة وكأن بينه وبين الإمام ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما بينه وبينه من حسد وسوء قالة بينما بينهما قرون طوال، لكن أتدري لماذا قال هذا؟

لعلي أدري من باب التحليل النفسي السريري لعلي أدري.

لقد كتب هذا ونشره من باب الادعاء والمعرفة وجلب النظر ليس إلا، وإلا فهناك في آليات الطرح الجيد النزيه، هناك فرق بين السطو والاقتباس، وبين السطو وتوارد الخواطر، وبين السطو وعموم المفهوم في عموم النحو التي لا بد نعم، لا بد في إيرادها، وخذ كذلك: «لقد كان ابن مالك ذكيًّا حينما صنف ألفيته».

يريد هذا الكاتب أن يكون ذكيًّا في كيفية السطو، وأنه ذو دهاء، وغاب عنه أنه يوجد اليوم فحول كبار أجلّ منه في ترجمة ابن مالك، حياته وشيوخه وتلامذته ورحلاته وأصول ألفيته لم يتعرضوا لما تعرض هو له، بل بعضهم ضرب كفًّا بكف على جرأة هذا الحاصل بسبب فقدان أصول الطرح الأخلاقي والأدبي والعملي.

وهذا نموذج عن (معاجم اللغة) فنقرأ مثلًا هذا الكلام: «ابن منظور لا أحد يشك في مقدرته على استيعاب ما يريد أن يبينه معناه من المفردات في (اللسان) وهو ينقل عن سواه ولا يحيل إلى غيره».

ومثل: «ففي (لسان العرب) محطات لم يشر إليها أنه نقلها بينما هو قد نقل من غيره».

هذا وذاك كلام دال جزمًا على أن هذا الإمام قد سطا لكنه سطو ذكي، إذ إنه أغفل المصدر الذي أخذ عنه.

لست هنا أبين العوار بوصفي ناقدًا علميًّا يقعّد ويؤصّل إنما فقط لأبيّن العجلة والتألّي والتعلّي ذلك أن هذا الناقد عفوًا، الكاتب لم يدلّل ولم يعلّل ولم يستشهد ولم يفسر إنما جرأة وإنشاء لا محيص.

وهذا مثال آخر يقوم، ولا يقعد على الإطراء المقيت خذ ما جاء: «أهداني د. (...) وهو أحد تلامذتي الذين درسوا عليّ أهداني نسخة من كتابه (...) بعد طباعته أخيرًا، فكأني به قد سار على منهج وطريقة (السيرافي) في شرحه لكتاب سيبويه لكنه كحقيقة علمية قد جاوزه كثيرًا، وتعدى (السيرافي)».

كل هذا الكلام جاء في كتابة مقال شبه أسبوعي قد تمت الحروف فيه إلى قرابة سبع مئة حرف، فكيف يكون هذا؟

لست أعلم أحدًا أن مثل هذا الباحث قد جاوز السيرافي كثيرًا ومن المعلوم في أساسيات النقد العلمي عند المحدثين والمثقفين واللغويين أن من قواعد النقد أصلًا لا بد منه وهو: حسن التصور وحسن التصرف ومساواة الناقد للأمر المنتقد تساوي الناقد والمنقود في الدرجة، وهذا ليس وجودًا.

كما أنه ولا أقول: (قد)، بل أجزم الجزم أنه يحتاج إلى دراسة منضبطة عقلًا وروية وأمثلة وسعة بال فطن، ولا يكون ثمة مجاملة أو كما يقول رفع المعنوية أرأيتم كيف إذًا؟

بهذا يذهب العلم رويدًا رويدًا، وتذهب الأدلة الصحيحة رويدًا رويدًا، ويذهب النقد الموهوب رويدًا رويدًا، ومن هنا قد يخال الكاتب نفسه أنه هو هو إذا لم يقم أحد ببيان الحق فيما كتب أو فيما قال في صحيفة أو مجلة ونادٍ أدبي أو ندوة أو مؤتمر.

ويظن الآخر المكتوب عنه الذي قيل عنه: إنه تجاوز السيرافي كثيرًا يظن نفسه حقيقًا أنه كذلك، فيتورم، فيقع لا شعوريًّا بمصيدة حيل النفس الأمّارة بالسوء، ويقع بمصيدة الهواء وعمى البال سيان.

ولنأخذ هذا النموذج: «ويحسن به أن يتوقف عن الكتابة لئلا يغتر به القراء، فهو يخلط، ولا يدري» فقد كان يمكن جدًّا أن يقول: إن كان محقًّا «فلعله لعله بحسن طريقته في الكتابة» أو «لعله يترك هذا المجال حتي يتورى منه».

أليس هذا حقًّا أن يكتبه بدل هذه الوصاية.

هذه نماذج تشير أول ما تشير إليه إلى ضرورة تصحيح العقل العلمي، وتصحيح العقل الثقافي، وتصحيح العقل النقدي.

نقد عرض الكتب الثقافي والعلمي في الدولة الحديثة

لقد بينت أن بعض من يعرضون الكتب من العلماء والمثقفين واللغويين والكتاب أو يطرحونها يجنحون إلى المبالغة وشدة الإطراء على المؤلف خاصةً إذا كان هناك ثمة علاقة بينهما أو علاقة ما بينهم. وتلك النماذج بما فيها من خلل علمي وجنوح ثقافي إلا أنها لم تزل تعاود الظهور في المجلات المحكمة وبعض الصحف السيارة ما يكون من دراسات وأطروحات تحتاج إلى مراجعة بشفافية وعدل واستقصاء ذلك حتى يتبين للمؤلف نفسه أستاذًا كان أو طالبًا أو صديقًا أو مطلوبًا منه الكتابة والعرض عن مؤلفه يتبين له ما له وما عليه ذلك أن القصد من العرض إنما الدراسة والبيان لا مجرد الإطراء والثناء، وهذا كما سلف القول يعطي مدخلًا للأساليب الإنشائية والعاطفية أن تطغيا طغيانًا كبيرًا على حساب النقولات الدراسية الموهوبة الجادة التي لم ترَ النور حتى هذه الساعة إلا إذا كنا نخلط بين الأساليب والدراسات والعرض ليس إلا، فلا تفرق بين شيء وشيء آخر من طراز جديد فريد من أجل ذلك فإن دور الهيئات العلمية والجامعات والمراكز البحثية والمجلات المحكمة وسواها دورها ذو أهمية بالغة للتوجه نحو ذلك.

ولست أنحو باللائمة على العلماء والمثقفين واللغويين والكتاب ما يكون لكن هذا مني أشبه باللوم والعتب على أن يكون عرض الكتب والآراء والدراسات ذات طابع علمي تجديدي بعيدًا عن العجلة ومجرد العرض، وإن كان كثير من العلماء والمثقفين والكتاب قد فرحوا بما سلف القول عنه في العدد السالف للتوجه نحو

الصدق في الطرح والعرض، وإن كنت أنا فخورًا بما وردني عبر بريدي الإلكتروني ورسائل الجوال إلا أنني أشدد القول في هذا على أن هذا الفرح والاستبشار يلزم منه القيام بما دعوت إليه مع خالص تقديري لهذا التوجه الذي وردني، ووصل إلي.

نقد السياسة العلمية في الدولة الحديثة

أحسب أنني واحد من المتابعين الجدد للعلم والثقافة وسياسة الامتداد الحضاري، وكنت قبل ذلك في حلقتين مضتا أو ثلاث بينت بعض الآثار الضعيفة والموضوعة التي ينقلها بعض العلماء وكثير من المؤرخين وكتاب الأخبار، وكذلك كتاب السير وجلة المثقفين، وكنت بينت بجانب هذا بعض الأماكن والمواضع التي لم تصح، واعتقد كثير من الناس حتى كبار الباحثين والكتاب أنها ضرب لازب.

وفي السياق نفسه بينت هناك أن العجلة وسبق القلب للعقل والنقل المجرد تلك هي أسباب من أسباب كثيرة أثرت تأثيرًا بالغًا في سياسة العلم والبناء الحضاري المستمر، ذلك أنه لا يصح إلا الصحيح، ولعل الذي يحمل وزر ذلك وإن كان هناك نية طيبة هم أولئك الذين يقبلون على النقل مع العجلة، فالاستنتاج ثم الحكم ثم البناء على هذا وذاك، على أن الحقيقة هي ما يدونونه وأن الحقيقة هي ما يرونها وأن لا شيء غير ذلك، ولقد لمحت التعلق بالرأي المجرد والنظريات التي تحتاج إلى أدلة مادية لا محيص عنها، ومن الاستقراء خلال متابعتي لسياسة العلم والبناء الحضاري وسياسة النقد العلمي وجدت أن الإنسان في هذا العصر هو ابن يومه يكرر ويملي على نفسه ما يظن أنه الصواب، حتى لقد يكون مستعليًا على سابق الحضارات من قديم الزمان، وحتى لعله ينتقد كبار العلماء خلال القرون السالفة ولما كان الإنسان لا يقرأ كثيرًا، ولا يتأمل كثيرًا ولا يستوعب كثيرًا، ولا يوازن فإنه في الغالب يقع في مصيدة العاطفة تلك التي تقوده إلى عمى البال، فيظن أنه جاء بما يمكن أن يكون الأمر عليه حاسمًا.

ومن المعلوم من النظريات القضائية الجنائية وسياسة الإدارة العليا وبحوث الثأر العلمية أن هناك حالات يمر بها من هذه حالته، فهناك الندم ثم الأسف ثم الحسرة، ولكن هذه لا تكون إلا بعد دهر طويل من حياة الإنسان بعد أن يهدأ ويستقر ويكون مكيثًا، ويكون ذا طول تأمل وبعد نظر، حتى لقد قال بعضهم: من نظر إلى ما ألف من قبل أو كتب من قبل ثم نظره فيما بعد قال: ليتني زدت أو نقصت أو ليتني فعلت أو ليتني لم أفعل.

ولا جرم فإنَّ التاريخ الإخباري الذي ذكر سير الأمم والحضارات منذ أقدم العهود هذا بحد ذاته مدرسة لكنها تحتاج إلى العقل الواعي المكين، لا بل إلى العقل المكيث العادل المنصف وسياسة اللغة وسياسة فقه اللغة وسياسة العلم التطبيقي، هذه هي أسس الخروج من بوتقة ضيق الأفق وسجن العاطفة وحوض القلب هذا أدرك جيدًا أن الإنسان إذا راوح مكانه، يبقى أسير العاطفة ويبقى أسير النظر ويبقى أسير الموقف لا يحيد عن هذا طرفة عين.

انظر مثلًا ما كتبه ابن خلكان وياقوت الحموي والمبرد في الكامل وابن عساكر في تاريخ دمشق، وما كان قد كتبه السيوطي وما كان قد كتبه كذلك السخاوي، ثم ما دونه ابن خلدون في المقدمة، تأمل ما كتبه هؤلاء لا من باب الاسترواح ولا من باب المتعة ولا من باب قضاء الوقت أو الاستشهاد لكن من باب أخذ العبرة والتدبر والشعور بالمسؤولية.

صحيح أن العقول تتفاوت كذلك الأفكار كذلك القلوب لكن الذي لا محيد عنه أن العاقل يخاصم نفسه في هذه الحالة بالذات في ذلك الجو المغلق إن كان الإنسان صادق نفسه وصاحبها أغلب الظن أنه يكون أحد العظماء، خاصةً إذا ترك هواه ونبذ عواطفه وجعل بينه وبين رغباته الذاتية أودية يصعب قطعها أبد الحياة.

إن حقيقة ما يمكن قوله في بناء العلم وبناء اللغة وبناء الحضارة أن نركز على وصول حصول العوارض التي تأتي فجأة أو تأتي بعد ترقب وذلك من خلال هذه الحالات، ما هي حقيقة الحاصل لدى العالم أو اللغوي أو المثقف ما هي أسباب ما حصل ثم بعد ذلك علة ما حصل، وهناك فرق بينته كثيرًا بين السبب والعلة، ثم بعد ذلك نظر الحلول كافة بتجرد تام، ثم ننظر بعد ذلك أفضل الحلول وبعد هذا كله كيف يمكن تطبيق هذه الحلول أو هذا الحل لبناء العقل العلمي الموهوب وبناء العقل اللغوي الموهوب أو بناء العقل المثقف الموهوب (دع عنك الإداري) العظيم الموهوب الذي يعرف ما له وما عليه.

ومن نافلة القول: إن هناك أسسًا كنت قد بينتها حينما كنت في وزارة العدل قبل انتقالي إلى عملي الجديد، وذلك من خلال نظر الجنايات والخصومات لدى مجلس القضاء لكي ينظرها ناظر القضية، فجعلت هناك اعتبارات، ثم عممتها على القضاة في عام ١٤٠٢هـ فنفع الله بها ردحًا من الزمن بل قد جاوز النفع بها قرابة ٧٠٪. من ذلك أنني ذكرت حقيقة المرض النفسي قبل الجناية أيًّا كانت في أثناء نظر القضية.

ثانيًا: حقيقة المرض النفسي في أثناء الجناية.

ثالثًا: حقيقة المرض النفسي أو الصدمة النفسية بعد الجناية.

رابعًا: ما يمكن أن يدعيه الجاني أو الجناة من خلل نفسي أو مرض نفسي.

هذه خطوات تبني العقل القضائي التطبيقي وهذه هي نفسها تفعل فعلها في مجال سياسة العلم وسياسة الثقافة وسياسة اللغة وكذاك الإدارة، ولا جرم فإنَّ العالم اليوم أشبه ما يكون بقرية، فما يحدث في طرفها يسمعه الذي في طرفها الآخر، وما يحدث في وسطها يشعر به الجميع.

وهذا يدعوني إلى القول كل القول: إنه لا بد من فقه الحياة عن طريق الموهبة العلمية العميقة والموهبة الثقافية كذلك؛ لأن هذا النوع من الناس هم من

أصول البناء الحضاري الامتدادي دون اللجوء إلى العجلة أو حب الذات أو حب الرئاسة ونشدانها: «والرائد لا يكذب أهله» فإنَّ كثيرا من العلماء والمثقفين لو جلبوا كتبهم تلك التي صنفوها مثلًا قبل عشر سنوات لحذفوا وأضافوا، ناهيك فلعل قليلًا منهم يتمنى لو أنه لم يكتب شيئًا من هذا أو ذاك، ذلك أن العقل الحر يزداد تطورًا، ويزداد تجربة، ويزداد معرفة؛ لأنه لا يبقى على حال واحدة، وهذا يدعوني إلى أن نبدأ من جديد، فلا نحرث في البحر، ولا نرقم على الماء، ولا نحط على الرمل، والله أعلم.

حيثيات دوام الدولة (١)

الأصل في هذا المعجم أنه يتطرق إلى المعاني والمرادف لها من وجه قريب أو المرادف لها من وجه بعيد أو ما يكون بين هذا وذاك على وجه لا يبعد عنه، واللغة العربية ذات نسق متعدد الألفاظ، وهذا التعدد قد يدل على معنى واحد، وقد تختلف المعاني بدليل الحس الظاهر او بدليل المعنى، فمثلًا بقي ومكث ودام واستقر وقر وما شابه ذلك كثير يدل على شيء واحد ما لم يرادف هذه الألفاظ معانٍ أخرى تصرفه إلى غير الوجه المراد.

أولًا: دام بقي.

ثانيًا: دام أطال المكوث قائمًا أو قاعدًا.

ثالثًا: ودام يدوم دومًا يراد به ظل وهذا طرد متحد.

رابعًا: ودام على هذا اللفظ يبينه ما بعده، فيقال: دام واقفًا، دام قاعدًا، دام سائرًا وهكذا.

خامسًا: دام من الدوام وهو طول البقاء، وينصرف هذا إلى الخلود بصفة من الصفات وبصورة من الصور على شاكلة مختلفة من حيث المعنى.

سادسًا: ودام يختلف عن أدام فأدام أبقى وهو بمعنى دام، فيقال: دام عالمًا وأدام عالمًا أي بقي عالمًا، ويبقى عالمًا.

سابعًا: تقول: أدام الله عزك وأمرك وشأنك بمعنى أبقى، وهذا ينجر على المعنى من أصل (دام).

ثامنًا: ودام بمعنى لم يزل إلا أن دام أقوى من حيث العموم.

تاسعًا: وظل وبقي وخلد بمعنى واحد وكلها تنصب بمعنى الدوام في الشيء وعلى الشيء.

عاشرًا: ودام يدخل هذا اللفظ مثل ما تقدم، فيقال: دام سائرًا لكن هذا على سبيل الانقطاع؛ لأن من سار لا بد أن يتوقف بحال من الحالات تتفق أو تختلف.

أما الحيثية فأريد بها التعليل العلمي أو السياسي أو الأمني أو القضائي أو الاجتماعي وكذلك ينصب هذا على السبب الموجب له بذاته؛ لأن هناك حيثية ذاتية وهناك حيثية منفصلة إنما ترد من ظاهر هذا التعليل وفي سورة (يوسف) وسورة (هود) قبلها و(الشعراء) و(القصص) و(العنكبوت) وفي كتاب (قصة الحضارة) وفي كتاب (حال المتهم في مجلس القضاء) وفي (تاريخ الأمم والملوك) لابن جرير الطبري وفي كتاب (المبتدأ والخبر) لابن خلدون وفي كتاب (الكامل) لابن الأثير الجزري وفي كتاب (اللامنتمي) للبيركامو وفي كتاب (الويفر توست) لتشارلز ديكنز، وفي كتاب (سير أعلام النبلاء) نجد المحصلات على الحيثيات والعلل والأسباب لبقاء الدولة من حيث الحس ومن حيث المعنى كذلك قال من تقدم أمرهم خلال تطاول العهود المتفاوتة.

من هذا، فإن أي مشكلة أو حادثة أو أمر من الأمور يقع في الدولة إنما يقع حين يقع لسبب من الأسباب، وهذا الوقوع الخللي أعتبره بحسب تصنيفي في سياسة الدول عرضًا لمرض وليس هو مرضًا أصلًا.

ذلك أن ما يحدث حينما يحدث إنما حدث لاجتماع حيثيات عدة أوجبت ظهوره أخيرًا لكن لما كانت الدولة أي دولة تتساهل في الأمور الصغيرة فإن هذه

الأمور الصغيرة تجتمع تلقائيًّا، فتصبح حينئذ وحدة واحدة ينخر في الدولة أصلًا، وهذا هو السبب المرضي الذي أظهر العرض وهو الخلل الظاهر الذي تتم محاربته وإيقافه بينما تغفل كثير من الدول عن معالجة المرض الذي يجب أن يعالج قبل كل شيء، ناهيك أن المرض الذي قد يغفل عنه كثير من الحكام قد يغفلون عنه للاهتمام بأعراضه، وهذا أمر بحسب دراساتي المتعددة في سياسة الدول والاستشارات العليا أمر شائن وهو الذي يجب أن يحسب له كل الحساب، ولذلك فإن ابن جرير الطبري وابن الأثير والذهبي وابن كثير والخطيب البغدادي وابن فورك وابن منده حينما ذكروا بعض الأشياء إنما انصب ذكرهم على النتائج ليس إلا، وهذا بحسب ظني ما جعل مثل هذه الكتب يستريح لها القارئ؛ لأنه يعيش الأحداث في دول مختلفة وفي شخصيات مختلفة، ولكن المشكلة هنا أنهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ تركوا المرض المنتج لبقاء الدول أو زوالها، وهذا أمر لم يقصدوه؛ لأن كتبهم ولأن آراءهم انصبت على السرد الخطابي والسرد الإخباري إلا أن ابن خلدون والعيني شارح البخاري وابن حجر شارح البخاري ذكروا بعض الحيثيات التي تقارب ذكر المرض من وجه قريب أقول: من وجه قريب، والذي أصب رأيي فيه بحسب تخصصي المبكر في سياسة الدول ومسار أهل الحديث واللغة في سياسة الموهبة العلمية والقضائية أنه لا بد من شدة التأني وشدة التحري وربط الأسباب والحيثيات للوصول إلى أصل العلة في كل شيء ينشأ؛ لأنني حينما أعالج الحيثية قد تخدعني نفسي، فتتغلب العاطفة على العقل، فأرتاح كثيرًا كثيرًا بينما يبقى المرض ينتشر، وهذا هو الخلل في مسار الدول عبر القرون.

حيثيات دوام الدولة (٢)

قلت من قبل: إن الحيثية والسبب والعلة والتعليل شيء واحد، لكن قد يختلف الوضع باقتران سبب مادي يصرف هذه الألفاظ إلى معنى آخر، وكان قصدي وقصد العلماء العارفين بسياسة الدول وسياسة الموهبة الإدارية العليا هو ألا نقرن بين العرض والمرض، فإن من سلف ذكرهم في الجزء الأول من هذا المعجم من الباحثين والمحققين والمؤرخين قد كانوا خلط كثير منهم بين العرض والمرض، فأبين هنا أن هناك أمورًا توجب طغيان العرض على المرض في الحيثيات والعلل والأسباب، فمن ذلك في تقديري الذي راجعته كثيرًا كثيرًا قبل تدوين هذا المعجم أن من أسباب طغيان العرض على المرض والاهتمام بالعرض دون المرض ما يأتي:

أولًا: الارتياح للحل الذي كانت نتيجته جيدة في بدء الأمر.

ثانيًا: سطو العاطفة على تحكيم العقل ورؤيته للآثار.

ثالثًا: سطو القلب وإحاطته بالعقل لكي لا يرى المرض وإنما يرى العرض.

رابعًا: حيل النفس على نظرة العقل للحوادث والوقائع من خلال الحيثيات لا من خلال نظر أصول الحيثيات ووقوعها على أرض الواقع.

خامسًا: الحل الجزئي للأسباب والرضا بهذا دون معالجة المرض أصلًا والذي قد يتورم بتركه لينمو كنمو عروق الأشجار في ظلمة الأرض وسط ظلام دامس.

سادسًا: العجلة في قبول الحلول المؤقتة التي يقبلها القلب، وتدعو إليها العاطفة، ويرفضها العقل المكين.

سابعًا: الاطمئنان إلى ذوي المصالح الشخصية، وهذه نقطة قد تغيب عن البال لطغيان العاطفة على العقل على وجه دائم.

ولا شك إنني سوف أكرر، قلت: سوف أنقل ما كنت قد ذكرته قبلًا في معالجة سياسة الدول، وهذا أمر أراه ضروريًّا؛ لأنه ينصب على معالجة المرض لا العرض من وجه قريب، وأشك أن أحدًا يخالفني من ذوي الاختصاص في سياسة الدول الذين يتكئون على قاعدة صلبة من علم ورأي سديدين. لقد قلت من قبل: إنه إذا كان لدى أي دولة أو حاكم من الحكام مشكلة فإنه يحسن به كما يحسن بها أن تنظر هذه الخطوات:

أولًا: معرفة أصل المشكلة ومنبتها.

ثانيًا: معرفة أسبابها كلٌّ على حدة بروية وثقل متين وطول بال.

ثالثًا: تحديد السبب الأقوى فالأقوى.

رابعًا: معرفة تسلسل الأسباب وجهاتها وعدم الثقة بذوي المصالح.

خامسًا: معالجة السبب الأقوى بروية وطول نفس.

سادسًا: القطع في حل المشكلة دون تردد مع أخذ الاحتياط، بل الاحتياطات لعدم الوقوع في الخطأ أو تكراره.

سابعًا: إيجاد الحلول بجعل الباب مفتوحًا لكل نظر ورأي حتى وإن جاء من أقل الناس علمًا.

ثامنًا: الاستفادة مما حصل من الدول المتقدمة عبر العصور.

وأريد هنا دفع الشك باليقين أن المرض هو الذي يجب نظره ومعالجته بعملية جراحية بتخدير يقبله البدن، وتقبله الكريات البيضاء، وتغذيه الكريات الحمراء، وهذا دون شك يعطي الدولة؛ أي دولة الارتياح لحقيقة دوامها بقاطع دابر المرض الذي تشعب عنه أعراض كثيرة وإنما الذي وقع فيه المستعصم آخر حكام الخلافة العباسية أن الذي وقع فيه هذا الرجل رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليس الضعف بذاته كما أشار بعض المؤرخين، لكنه تساهل في المقربين إليه من الترك والشركس وغيرهم، فعالج هناك الأعراض وترك المرض يسري حتى هزم الكريات البيضاء، فانهار البدن جميعه، وفي قصة هذا الحاكم وغيره مما خلف من القرون عبرة لشدة التروي وطول النفس والإحاطة بذات الأمراض التي تصب بمرض واحد في حقله في حوضه في بئره في ساقه. هذا هو الذي أريد من هذا الأمر على حال توجب مني ومن غيري دراسة أحوال الأمم والدول والحضارات، معرفة حقيقة كل مرض نخر في كل دولة في سالف العهود، والذي يقرأ ابن خلدون أو يقرأ (قصة الحضارة) أو يقرأ ابن كثير في جزئه الخامس والسادس والسابع يدرك حقيقة الدوام لكل من أرادهم -بإذن الله- ولعل من ناصح للقول: إنني حينما أقرب إلى من لا أريده أصلًا وهو ناصح خير من أن أقرب إلى المستفيد مني مصلحة، وإن كان من المقربين إليَّ، وكما قلت من قبل: فإن الحيثية أن نصرف النظر عنها وكذلك العلل والأسباب لكن ننظر إلى بواعثها ليس إلا.

أصول الحكم في الدولة

سبيل الحكم وأساسه أنه قدرة نوعية حية ذات أبعاد قوية في كل اتجاه. فالقوة الحكيمة المغلفة بالدهاء الفطن والتمييز القوي المدرك وشفافية الاختيار لكل ذي منصب ومركز مهما كان هذا وذاك، كل هذا يصب في دائرة الصواب المستقيم وأصل الحكم أنه الشد بقوة عاقلة متوازنة؛ ليدرك هذا ويدرك ذاك أن الحكم هو الحكم، ولا مناص ولا جرم.

فالقضاء أو أي مرفق من مرافق الدولة ذات الحساسية هذا أمر يجب التنبه له؛ لأنه أصل في حياة الخلق؛ فإن القاضي إياه الأصل فيه أن يكون قاضيًا بفطرة حية، لا تزول.قلتُ: وقد أجمل ابن خلدون والقرافي والآمدي وابن حزم والسرخسي وابن فرحون وابن قدامة وابن رجب وابن حجر والنواوي، أجملوا حقيقة هذا النهج على نحو خالد، ليس يبيد، وأورد هنا مجمل هذا كله فيما حكاه صاحب الروض الإمام البهوتي في ج٢ ص٤٧٢-٤٧٣-٤٧٤؛ إذ قال هناك: يشرح كتاب الزاد للإمام أبي النجا موسى بن أحمد الحجاوي، فهو يقول:

باب آداب القاضي.

أي أخلاقه التي ينبغي له التخلق بها، (ينبغي) أي يسن «أن يكون قويًّا من غير عنف»؛ لئلا يطمع فيه الظالم، والعنف ضد الرفق: «لينًا من غير ضعف»؛ لئلا يهابه صاحب الحق، (حليمًا)؛ لئلا يغضب من كلام الخصم، (ذا أناة) أي

تؤده وتأنٍّ؛ لئلا تؤدي عجلته إلى ما لا ينبغي، (و) ذا (فطنة)؛ لئلا يخدعه بعض الأخصام. ويسن أيضًا أن يكون عفيفًا بصيرًا بأحكام من قبله.

وقال أيضًا: «ويستحب ألا يحكم إلا بحضرة الشهود؛ ليستوفي بهم الحق، ويحرم تعيينه قومًا بالقبول «ولا ينفذ حكمه لنفسه، ولا لمن تقبل شهادته له» كوالده وولده وزوجته، ولا على عدوه كالشهادة، ومتى عوضت له أو لأحد ممن ذكر حكومه تحاكمًا إلى بعض خلفائه أو رعيته كما حاكم عمر أبيًّا إلى زيد بن ثابت، ويسن أن يبدأ بالمحبوسين، وينظر فيمَ حُسبوا، فمن استحق الإبقاء أبقاه، ومن استحق الإطلاق أطلقه، ثم في أمر أيتام ومجانين ووقوف ووصايا لا ولي لهم ولا ناظر».

وتدبر ما أوردته آنفًا قراءة وتأملًا وشدة تدبر هذا لعله يفي بالغرض.

وكثيرًا ما نبهت القضاة ورئيس المحاكم إليه منذ عام ١٤٠٠هـ حتى عام ١٤٠٣هـ وإلى عام ١٤٢٥هـ.

واليوم توسعت المدارك، وتوسعت العلوم، وأصبح العالم كقرية واحدة، يستفيد هذا من ذاك؛ فيتوسع العقل، وتتفتح المدارك، ولعل هذا يوجب طول التأني وسعة البال، ويوجد -بإذن الله تعالى- مكتسبات، لعلها تسد مسد بعض صفات الموهبة إذا لم تكن ذات وجود.

ومن المعلوم أن القاضي أو أي مسؤول إلى الوزير، أي وزير، إنما يتحمل الأمانة؛ لأن ولي أمر المسلمين خوله الأمانة؛ فهو يتحمل ما تحمله، وعليه فإنه يجب أن يفي بالأمانة بكمال نظر، وبقوة، وإدراك، ونزاهة، ولا شك أن حفظ أمن الدولة وحفظ هذا الدين والعقل والمال والنفس إنما ذلك يعود إلى هؤلاء، ولا يجب أن يكون ولي الأمر محط نقد أو تجريح؛ لأنه جعل من جعل ليقوموا بما وُكّل إليهم على سواء مستقيم.

وعود على بدء، أبين في هذا الجزء من هذا المعجم بعض روادف القضاء:

أولًا: الحكم، الأمر والإلزام به على وجه بيّن.

ثانيًا: الحكم، قوة النظر والحكم بعدل حكيم عاقل.

ثالثًا: الحكم، النظر المطلق والقضاء يسد مسد ولي أمر المسلمين؛ فيتحمل القاضي الذمة، كذلك من شكا له.

رابعًا: الحكم، مصدر أصلي أصله حكم يحكم ينظر بقسطاس مبين.

خامسًا: وحكم، فصل في القضية.

سادسًا: ويحكم، يفصل فهو مستمر في هذا.

سابعًا: الحاكم، والقاضي بينهما العموم والخصوص من وجه؛ فالحاكم أعم كذلك قال أهل اللغة وعلماء الأصول في سياسة النظر.

التجربة العلمية الحرة في الدولة المعاصرة

القصد من هذا أن نحلل علميًّا، ونسبر الغور اللغوي لعلماء قصدوا العلم، ورحلوا إليه بواسع من صدر ثقيل.

ذلك أن ذكر (معاجم الرجال) يدعو دون نكير إلى تتبع آثارهم وكيف توصلت عقولهم الحرة المتينة إلى ما توصلت إليه؟

فلو أنك قرأت على مثال يقوم، ولا يقعد كتاب (تواريخ البخاري الثلاثة) أو أنك قرأت (الكامل) لابن الأثير، أو طالعت لابن عساكر (تاريخ دمشق)، ثم نظرت ما صنعه كثير من المتأخرين خلال القرون الثامن الهجري إلى اليوم لوجدت فرقًا بينًا لا من حيث الحذر من الخطأ أو الحذر من إيراد الآثار الضعيفة أو السرد الخبري أو النقولات، بل من شدة التوقي من الاستجداء ونشدان الأحادية.

فهناك تجد إذا تأنيت، وارتاح بالك كثيرًا، وسرت نحو الشفافية تجد التوجه الحر لأمانة الطرح وصدق القالة ووعي المراد لن تستغني عن صفحة دون أخرى كلا، ثم كلا، بل تقودك القراءة الانقياد كله لا بعضه إلى إعادة القراءة مرات عدة، لكنك حينما تقرأ شيئًا مما صنف مما أشرت إليه آنفًا فتجد (وجرب) و(قارن) تجد السرد وعزة النفس والاستجداء وضعف كثير من الآثار، مع سطو خفي غاية في الذكاء.

من أجل ذلك أذكر هنا ما ذكر أخونا المحقق د. أكرم بن ضياء العمري من جملة من كتب التراجم التي لا شك أن المطالع لهذا (الجزء من المعجم) سوف يقتنيها بل ويلزم فحواها ليزين بها رفوف مكتبته، وهذه هي كتب التراجم:

١- أبو بكر محمد بن مسلم (الحافظ) ت:٣٥٥هـ وكتابه: (كتاب في محدثي بغداد) وكتاب (تاريخ الموصل).

٢- محمد بن عبيد الله بن أحمد المسبحي ت:٤٢٠هـ. وكتابه: (تاريخ المغاربة) و(مصر).

٣- ابن ماجه القزويني وكتابه: (تاريخ قزوين).

٤- أبو القاسم عبدالرحمن بن منده ت:٤٧٠هـ. وكتابه (كتاب الوفيات).

٥- محمد بن عبدالله الربعي الدمشقي ت:٣٧٩هـ. وكتابه: (تاريخ مواليد العلماء ووفياتهم).

٦- أبو بكر أحمد بن إبراهيم الجرجاني وكتابه: (معجم الشيوخ).

٧- الإمام الطبراني وكتابه (المعجم الأوسط) وكذا (المعجم الصَّغير).

٨- عبدالله بن جبلة الكناني وكتابه (كتاب الرجال).

٩- أحمد بن محمد البرقي وكتابه : (كتاب الطبقات).

١٠- أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة الكوفي وكتابه: (التاريخ الكبير). أبو جعفر محمد بن الحسن وكتابه (الفهرست).

١١- قلت: وهذا كتاب لي عليه ملاحظات.

قلت كذلك: ليت أكرم العمري حين ذكر هذه الجملة من الكتب بين ما لها وما عليها فإنَّ ذلك لو فعله يكون حسنًا؛ لأنه مجرد العرض دون توجيه أو

ملاحظة مدعمة بدليل ليس بشيء ولعل الملاحظات والتعليقات على كتب سلفت بوحي من الفهم سديد ومن باب الحرص على التكامل البحثي يعطي هذا وذاك روحًا مفيدة ومستفيدة.

ويبقى الأصل هنا أن ما دونه أولئك من الكتب التي حوت وجمعت وأسست يبقى الأصل أن علم سياسة التراجم وسياسة اللغة نسقان متحدان دون ريب، وتستشف من هذا كله قوة البذل العلمي الحر وقوة النظر اللغوي الجيد ناهيك أن قوة الاطلاع على آثار القوم تدفع العقل السليم الواعي إلى التحرر من قيد بل قيود العاطفة والتردد وسرعة الكتابة هكذا، ولا سيما والعقل قد بدأ يتحرر شيئًا فشيئًا من المحاكاة وتقليد الآخر، وليس من سبيل إلى زيادة حرية العقل إلا بتمام نزاهة القراءة وسبر غور الذين جودوا، وأضافوا.

نقد السياسة العلمية في الدولة المعاصرة

أحسب أنني واحد من المتابعين الجدد للعلم والثقافة وسياسة الامتداد الحضاري، وكنت قبل ذلك في حلقتين مضتا أو ثلاث بينت بعض الآثار الضعيفة والموضوعة التي ينقلها بعض العلماء وكثير من المؤرخين وكتاب الأخبار، وكذلك كتاب السير وجلة المثقفين، وكنت بينت بجانب هذا بعض الأماكن والمواضع التي لم تصح، واعتقد كثير من الناس حتى كبار الباحثين والكتاب أنها ضرب لازب.

وفي السياق نفسه بينت هناك أن العجلة وسبق القلب للعقل والنقل المجرد تلك هي أسباب من أسباب كثيرة أثرت تأثيرًا بالغًا في سياسة العلم والبناء الحضاري المستمر، ذلك أنه لا يصح إلا الصحيح.

ولعل الذي يحمل وزر ذلك وإن كان هناك نية طيبة هم أولئك الذين يقبلون على النقل مع العجلة، فالاستنتاج ثم الحكم ثم البناء على هذا وذاك، على أن الحقيقة هي ما يدونونه، وأن الحقيقة هي ما يرونها وأن لا شيء غير ذلك.

ولقد لمحت التعلق بالرأي المجرد والنظريات التي تحتاج إلى أدلة مادية لا محيص عنها، ومن الاستقراء خلال متابعتي لسياسة العلم والبناء الحضاري وسياسة النقد العلمي وجدت أن الإنسان في هذا العصر هو ابن يومه يكرر ويملي على نفسه ما يظن أنه الصواب، حتى لقد يكون مستعليًا على سابق الحضارات من قديم الزمان، وحتى لعله ينتقد كبار العلماء خلال القرون السالفة، ولما كان الإنسان لا يقرأ كثيرًا، ولا يتأمل كثيرًا، ولا يستوعب كثيرًا، ولا يوازن فإنه في

الغالب يقع في مصيدة العاطفة تلك التي تقوده إلى عمى البال، فيظن أنه جاء بما يمكن أن يكون الأمر عليه حاسمًا.

ومن المعلوم من النظريات القضائية الجنائية وسياسة الإدارة العليا وبحوث الثأر العلمية أن هناك حالات يمر بها من هذه حالته، فهناك الندم ثم الأسف ثم الحسرة، ولكن هذه لا تكون إلا بعد دهر طويل من حياة الإنسان بعد أن يهدأ ويستقر ويكون مكيثًا، ويكون ذا طول تأمل وبعد نظر، حتى لقد قال بعضهم: من نظر إلى ما ألف من قبل، أو كتب من قبل ثم نظره فيما بعد قال: ليتني زدت أو نقصت أو ليتني فعلت أو ليتني لم أفعل.

ولا جرم، فإنَّ التاريخ الإخباري الذي ذكر سير الأمم والحضارات منذ أقدم العهود هذا بحد ذاته مدرسة لكنها تحتاج إلى العقل الواعي المكين، لا بل إلى العقل المكيث العادل المنصف وسياسة اللغة وسياسة فقه اللغة وسياسة العلم التطبيقي، هذه هي أسس الخروج من بوتقة ضيق الأفق وسجن العاطفة وحوض القلب. من هذا أدرك جيدًا أن الإنسان إذا راوح مكانه يبقى أسير العاطفة، ويبقى أسير النظر، ويبقى أسير الموقف لا يحيد عن هذا طرفة عين.

انظر مثلًا ما كتبه ابن خالكان وياقوت الحموي والمبرد في (الكامل) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) وما كان قد كتبه السيوطي وما كان قد كتبه كذلك السخاوي، ثم ما دونه ابن خلدون في المقدمة، تأمل ما كتبه هؤلاء لا من باب الاسترواح ولا من باب المتعة ولا من باب قضاء الوقت أو الاستشهاد لكن من باب أخذ العبرة والتدبر والشعور بالمسؤولية.

صحيح أن العقول تتفاوت، كذلك الأفكار، كذلك القلوب لكن الذي لا محيد عنه أن العاقل يخاصم نفسه في هذه الحالة بالذات في ذلك الجو المغلق إن كان الإنسان صادق نفسه وصاحبها أغلب الظن أنه يكون أحد العظماء، خاصةً إذا

ترك هواه ونبذ عواطفه، وجعل بينه وبين رغباته الذاتية أودية يصعب قطعها أبد الحياة.

إن حقيقة ما يمكن قوله في بناء العلم وبناء اللغة وبناء الحضارة أن نركز على وصول حصول العوارض التي تأتي فجأة أو تأتي بعد ترقب وذلك من خلال هذه الحالات، ما هي حقيقة الحاصل لدى العالم أو اللغوي أو المثقف؟ ما هي أسباب ما حصل ثم بعد ذلك علة ما حصل ، وهناك فرق بينته كثيرًا بين السبب والعلة، ثم بعد ذلك نظر الحلول كافة بتجرد تام، ثم ننظر بعد ذلك أفضل الحلول وبعد هذا كله كيف يمكن تطبيق هذه الحلول أو هذا الحل لبناء العقل العلمي الموهوب وبناء العقل اللغوي الموهوب أو بناء العقل المثقف الموهوب (دع عنك الإداري العظيم الموهوب الذي يعرف ما له وما عليه).

ومن نافلة القول: إن هناك أسسًا كنت قد بينتها حينما كنت في وزارة العدل قبل انتقالي إلى عملي الجديد، وذلك من خلال نظر الجنايات والخصومات لدى مجلس القضاء لكي ينظرها ناظر القضية، فجعلت هناك اعتبارات، ثم عممتها على القضاة في عام ١٤٠٢هـ فنفع الله بها ردحًا من الزمن بل قد جاوز النفع بها قرابة ٧٠٪. من ذلك أنني ذكرت حقيقة المرض النفسي قبل الجناية أيًّا كانت في أثناء نظر القضية.

ثانيًا: حقيقة المرض النفسي في أثناء الجناية.

ثالثًا: حقيقة المرض النفسي أو الصدمة النفسية بعد الجناية.

رابعًا: ما يمكن أن يدعيه الجاني أو الجناة من خلل نفسي أو مرض نفسي.

هذه خطوات تبني العقل القضائي التطبيقي وهذه هي نفسها تفعل فعلها في مجال سياسة العلم وسياسة الثقافة وسياسة اللغة وكذلك الإدارة، ولا جرم فإنَّ العالم اليوم أشبه ما يكون بقرية ما يحدث في طرفها يسمعه الذي في طرفها الآخر، وما يحدث في وسطها يشعر به الجميع.

وهذا يدعوني إلى القول كل القول: إنه لا بد من فقه الحياة عن طريق الموهبة العلمية العميقة والموهبة الثقافية كذلك؛ لأن هذا النوع من الناس هم من أصول البناء الحضاري الامتدادي دون اللجوء إلى العجلة أو حب الذات أو حب الرئاسة ونشدانها و«الرائد لا يكذب أهله» فإنَّ كثيرًا من العلماء والمثقفين لو جلبوا كتبهم تلك التي صنفوها مثلًا قبل عشر سنوات لحذفوا، وأضافوا، ناهيك فلعل قليلًا منهم يتمنى لو أنه لم يكتب شيئًا من هذا أو ذاك، ذلك أن العقل الحر يزداد تطورًا، ويزداد تجربة، ويزداد معرفة؛ لأنه لا يبقى على حال واحدة.

أصول الحكم في الدولة

لعل من أساسيات استمرار الدولة وعدم تخلخل حالتها، من أساسيات ذلك التنبه لخطأ أو أخطاء جرت على دول، ترعرعت خلال قرون سلفت؛ ذلك أن التنبه وتكرار قراءة خطاب التاريخ التحليلي وقراءة التاريخ النقدي قراءة متأنية ذات مسار مهتم بتداعيات حقائق الخطأ والصواب يكشف لأي دولة حديثة جذور حصول الخطأ قبل أن ينبت أصلًا -بإذن الله تعالى-.

وليس هذا مني ادعاء، ولكن قراءاتي المستمرة في سير الأمم الماضية تعطيني صورة أن الأخطاء تتشابه غالبًا، وإن اختلفت في الصورة، وإن اختلفت في الصور.

والمشكلة هنا -حقيقة- أن تقديم القلب على العقل في حل الطارئ من الأمور ولو كان صغيرًا هذا يجر معه تداعيات قد تكون مقلقة.وأغلب الظن أن المبادرة الحكيمة المتزنة تعطي تصورًا حيًّا لحجم الخطأ وتأثيره، قريبًا كان ذلك أو بعيدًا. وكنت قد كتبت قديمًا هذه الحكمة التي تحصلت عليها من خلال تجارب عدة نظرية وعملية، وتلكم هي «أن الحذر من الصديق يحسن أن يكون أكبر من الحذر من العدو؛ فقد يكون العدو ليس عدوًّا أصلًا، لكن تصوري عنه أنه كذلك بسبب وشاية أو سوء فهم مني أو أن هذا العدو لا يقصد شيئًا، لكنها طبيعته. هذا أبعد عن ذهني كثيرًا من التصورات عن كثير من الشخصيات خلال عهود تتالت».

وقد كان هذا سببًا لعدم قبولي شكوى ضد قاضٍ أو رئيس هيئة ما إلا بعد تصور وتصور، وكنت لا أقبل هنا لمزًا أو غمزًا حتى من المقربين إليّ.وحقيقة القول هنا كحقيقة هناك أن الندم سيئ على النفس والعقل والروح إذا حكمت أنا أو غيري بمجرد ظن أو نقل كلام دون دليل مادي مع ما يجب أن أتسم به من نزاهة وعدل ومحاكمة عاقلة.والقوة هنا تكمن في تمام الثقة بالنفس، وهذه الثقة أصل من أصول الحكم، وهي أصل في أساس النجاح في مسار الحياة في الجملة؛ ذلك أنها تولد القدرات، وتولد عافية النظر والأخذ بالنص وتنزيله على أرض الواقع بشفافية وسبق تصور جليل، وهذا أصل ثانٍ.

أقول: إن القوة من أسباب حصولها لدى المرء هي هذه الثقة وهذه المحاكمة الحكيمة المتزنة، تلك التي ترى في الضعيف قويًّا وفي القوي ضعيفًا حتى تتضح الحالة والأخرى والثالثة، وحتى تتضح الحالات في سير حياة حية باقية.وهذا يدعو إلى القول: إن من أصول الحكم طول البال وسعة النظر والتجارب واتقاء الزلل خاصة ما توحيه إلي عاطفتي ورغبتي أو ميلي دون نظر إلى ما سلف، ولا سيما تحكيم العقل الفطين مع النص السليم الخالي من الشائبة.

وهنا لعلي آتي على جزء لا بد من الإتيان به، يدخل في دائرة هذا المعجم، وذلكم هو معاني القوة التي هي أصل من أصول الحكم على كل حال.

أولًا: القوة، ويراد بها الرمي المتجه إلى الهدف كما جاء في الصحيح) ألا إن القوة الرمي.

ثانيًا: القوة العزيمة وهذه صفة نفسية.

ثالثًا: القوة، القدرة على الشيء، ولفظ القوة أعم.

رابعًا: القوة، الغلبة وهي مثل القدرة بالنسبة إلى القوة، لكن الغلبة تعني أحيانًا الظهور.

خامسًا: القوة العزيمة، وذلك من جهة السيادة والإمامة حسن ومعنى.

سادسًا: القوة، ويراد بذلك الإصرار على التمسك بشيء ما قناعة ورضا.

سابعًا: القوة، وتعني الفهم الجيد بسبب صفاء الذهن وسلامة العقل وحسن التربية وسلامة الروح من الشوائب. هذا من باب المعاني، ولهذا يحصل الإلحاد عندما يعجز العقل عن إدراك أصول الغيبيات، وهنا يفترض افتراضات ضمنية يصدقها بسبب قراءة ما أو صداقة ما أو فهم ما، لعله جاءه بسبب عجز لم يستطع عقله استيعابه مع وجود وخز شديد في اللاشعور، يحس به، لكنه يتناساه من باب العناد اللاشعوري الذي قد لا يدركه هو. وهذه الحال يحس بها كذلك الظالم والواشي إذا خلا كل منهم بنفسه.من أجل ذلك يعيش هذا النوع في غربة، لكنه لا يدركها إلا متقطعة، ولعله لو غاص في أعماق ذاته وصادق نفسه وصدق معها لأحس هناك بأنه يلتقي مع الحق ولو كان عليه ثقيلًا.

الدولة والموهبة والمسؤولية اليوم

ليس بوسع المرء خلال الدراسات المتمكنة الطويلة ذات الأبعاد العلمية البحثية أن يكون قاضيًا ما لم يكن لديه ذلك الاستعداد النفسي والاستعداد العقلي، حتى لو درس، وحقق، ونظر العلم زمنًا طويلًا.

ذلك أن حقيقة الأمر عبر الدراسات والبحوث المتخصصة أن الموهبة في هذا السبيل أصل لا بد منه.

وأجزم -وليس هناك منافح- أن هناك فرقًا شاسعًا بين من يحكم ويجلس للقضاء ويفصل في الخصومات، وذلك الذي يحقق ويكتب ويقرر. وهنا لا يتفق هذا وذك بحسب السبر ودراسةالأحوال. ولا شك أنه عند التحليل العلمي الدقيق والإجراء النفسي الطويل الجيد والمتين من يحكم ويفصل في الخصومات ويزاول القضاء في مجلس القضاء إذا كان موهوبًا فإن الموهبة تستعدي ما يحتاج إليه جميع من أمر.

ذلك أن هذه الموهبة لها قدرة في أغوار النفس وعمق العقل على النظر المدرك الواعي بحيث القاضي يحكم من خلال الدهاء السليم وسعة الفطنة وقدرة الإدراك لما بين يديه، واستدعاء دلائل الآثار والنظائر والأشباه بواسع من عقل فطين.

وما كثرة الاطلاع وتدبر العلم والاستشارة إلا من الروافد، وكم ذكرت لطلابي في الدراسات العليا وخلال الندوات العلمية الدقيقة مثل هذا، وأنه لا بد

من الموهبة؛ لأنها تعطي صاحبها من الوعي وصدق النظر وقوة القياس الصحيح الشيء الذي لا يكاد يفطن إليه إلا النوادر من المتابعين من الساسة ومن تعنيهم هذه الحال، ولا يحسن الخلط هنا، وأكرر هذا دائمًا بين قوة الحضور والمتابعة وحب الخير والحرص عليه، والموهوب الذي يجلس في القضاء؛ ذلك أن عادة الموهوب -وهي سجية غالبًا- لا ينفك عنها التواضع حتى في السكن واللباس وبساطة العيش، وحتى وأنت تحادثه تظن أنه عادي الحياة بين الموهوب الفاصل والقاطع عن احتدام القضايا وتزاحم الأمور بصرف النظر عما يقال عنه من وشاية خاصة من القريب أو من الزميل.يقول أبو جعفر المنصور: «إنا لا نسأل القريب عن قريبه، ولا نستشيره ولو كان وجيهًا».

ومن العجيب في مثل هذا -أعني الموهوب- إذا تهيأ له الجو أنه يستطيع النظر في خمس حالات قضائية في يوم واحد دون تأجيل أو معاودة، وله من قوة النظر وسعة العقل واستنطاق الحال ما قد يخال للحاضر أو يخال للسامع أنه ضرب من الخيال، بين ما ذاك حق لا مرية فيه.

واستكشاف هذا النوع صعب جدًّا. المشكلة هنا كاملة في الخلط بين حال وحال، وصفة وصفة.

ولهذا يحرص الساسة عبر القرون على القبض على هذا النوع دون نظر على حب له أو كره له؛ ذلك أن الموهوب ينفع ولا يضر، يعطي ولا يمنع، يبذل ولا يقصر، يحذر الحذر كله من مخالفة ولي أمره في حالاته كلها نشدانًا لحفظ الأمن وسيادة الطاعة وصدق الولاء وتحريه.

هـ ولعل مثل هذا، فإن العبرة فيه في كيفية مثل هذا لا في كميته. وكنت أنوه عن هذا كثيرًا عند اختيار القضاة من سنة ١٤٠٠ إلى سنة ١٤٠٣هـ حينما كنت مديرًا للشؤون القضائية بوزارة العدل قبل أن أنتقل إلى عملي العالمي الحالي.

وعودًا على بدء، فإنني أبيّن هنا في هذا المعجم ما يربط اللاحق بالسابق لبيان ألفاظ لا بد أن أبينها على وتيرة، يأخذ بعضها برقاب بعض في هذا المعجم الطويل.

فمن ذلك أولًا: قضي الأمر بضم القاف وفتح الياء: قطع بضم القاف كذلك.

ثانيًا: قضت عليه، أتت عليه، أكلته دابة الأرض.

ثالثًا: قضيان الحاجة بتشديد الياء وهي لهجة مغربية، والمراد اقضِ لي الحاجة.

رابعًا: قضيها لي بتشديد الياء هي لهجة يمانية بمعنى اقضِها لي.

خامسًا: ما نقضاها وهي لهجة على لسان أهل اليمن بمعنى لا أريد قضاءها.

والقضاء ما قضاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أيًّا كان. وهذا مع القدر من أركان الإيمان.

سادسًا: وقضى بتشديد الضاد أخت الصاد بمعنى هدم وأزال، وهذه لغة قليلة.

سابعًا: وأصل القضاء فيما حكاه الإمام منصور بن يونس البهوتي في الروض المربع، ج٢، ص٤٧٢.

(إحكام الشيء والفراغ منه).

قلتُولعل البهوتي أراد إحكام الشيء هو ضبطه، ووقع الشيء في موقعه، لا يحيد عنه. وهذه هي تقديري العلمي، هي الموهبة الفذة، وهذا لا يتأتى لمن فقد الموهبة إلا بعد طول نظر: شديد ومقايسة صادقة وعقل قوي سليم وطول تأمل. ولو ظهرت النتيجة بعد حين، ولعله قد يصيب.

ولعل ضابط هذا كله هو الهدوء والثقة في النفس دون تردد، وقوة مراجعة وتقوى وورع.

أين الخلل في حكم الدولة؟

يسعى الناس منذ أن يعقل الإنسان أمره، ويدرك حاله إلى أن يسير وفق منهج سليم بمحاكمة عاقلة رزينة، كما أنه يسعى ويحاول أن يبتعد عن الاعتذار، وذلك بالبعد عن حصول الخطأ منه قصدًا أو سهوًا.

وبمحاولة إيجاد التنبه الإرادي المتين والحذر الحي الدائم.

واقتران الحركة بالفكر دون أن تغيب عن توجيه الفكر الجيد الحكيم.

وإذا كان هذا الإنسان بهذه الصفة فإنه قد يقع منه بعض الزلل ولكنه زلل قد يكون هينًا، وقد يكون مرة أو مرتين مع الإحساس بشدة لومه نفسه على هذا ولوم نفسه إياه ووجود وخز دائم لا شعوري يحس به بين الحين والحين.

ولست هنا أهدف إلى المثالية وتلمس صفة الإنسان المثالي، فلست من هذا النوع الذي يغذي القلب بالأماني وتحفيز العاطفة إلى الارتقاء نحو المثالية، ولذلك تجدني أعتذر كثيرًا لبعض وسائل الإعلام عن أي مقابلة علمية أو قضائية أو سياسية، ولكن هذا مني على الحقيقة لوجود الشواهد عليه بين إنسان وآخر، وهذا الطرح المختصر مني لجميع المعنيين، هذا المختصر يقود إلى القول: إن الدولة أيًّا كانت مثلها مثل الإنسان على هذه الوتيرة ناهيك بها من وتيرة وعلى صفة هي الصفة وعلى حال هي الحال.

فالدولة لعلها من باب آخر تتعدى هذا إلى مزيد من الحذر بل شدة الحذر والتوقي كل التوقي من أن يكون عليها القول مؤاخذة أو ملاحظة ولا سيما في أساسيات عضدها وثنايا ظهرها.

فالدولة حينما تحسن النظر وتحسن القول بنظر مكين مجرب وبقول حكيم مسدد وبضبط عاقل متأنٍّ تسلم غالبًا من القيل والقال.

دع عنك الكلام من حانق أو مباعد أو هو ينظر بعين عوراء أو هو ينظر بعين غيره.

لكن الاستفادة من الخطأ مهما كان ولو كان ضئيلًا هذا حقيق به أن يكون لبنة من الصلب الكبير الذي لا تعلوه الآفات على مر الحقب الطويلة لصلابته وقوة داخله.

ولست أشك أن سعة البال مع سعة النظر مع سعة تكرار معاودة العلاقة بمن نسيء فهمهم لسبب ما لا شك أن هذا يعطي صورة عميقة قادرة بإذن الله تعالى على وضوح الرؤية في عتمات الخفاء.

ولقد درست من الناحية السياسية وكذا الإدارية العليا سبب انهزام الحكم إبان غزو المغول، ثم بعد ذلك نظرت الوضع من الناحية العقلية والنفسية، فاتضح لي أن ما يقارب من خمسين سببًا كان وراء انتصار المغول، وليس هنا مجال لعرض هذا لضيق المساحة، ولعلي أهدف من هذا كله إلى ما يمكن تلافيه بمعاودة ما كتبته من أجزاء مضت من شهر محرم وصفر من هذا العام ١٤٣٨هـ في هذه المجلة الثقافية الرائدة.

ومن العود إلى أصل هذا المعجم فسوف أبين بعض معاني هذه المفردة (الخلل):

أولًا: الخلل، الخطأ.

ثانيًا: الخلل، الاهتزاز.

ثالثًا: الخلل، السوء حسًا أو معنى.

رابعًا: الخلل، عدم الانضباط.

خامسًا: الخلل يؤخذ في أصله من الاختلال وهو الاعتلال أو العلة، وهي حالة خفية قد لا يكتشفها إلا النادر من النابهين في سياسة الأحوال والقضايا والأمور.

العلماء النابهون والوراقون في الدولة المعاصرة

العلم أشبه ما يكون بالدولة من حيث سياستها، تلك التي تستقطب العقل والعمق وبُعد النظر. ففي العلم عمق، وفيه وضوح، وفيه مجمل، وفيه مفصل، وفيه مطول، وفيه مختصر، وفيه -إضافة إلى هذا- بيان وقوة.

ولعلك كلما أتيت إلى العلم انزاح عنك وابتعد ما لم تأتِه باستعداد وقوة وانقطاع.

والعلم في عصر ما ينتشر ويتفرق بحسب تنوعه، لكنه قد يجتمع جله في أشخاص معدودين بين مئة ألف أو يزيدون؛ ذلك أنه لا يستقر إلا لدى الموهوب المستعد له على شاكلة من خلا من علماء، هم بيننا أحياء بتراثهم وأخلاقهم وذكرهم، وكل ما نريد منهم مسطر مسطور.

ففي زمن من الأزمان، أقول: في زمن من الأزمان قد يوجد عدد كبير من العلماء لا يحصى عددهم، لكن لا يبرز إلا القليل.

وأحسب أنني ممن حلل هذا بدراية ورواية على مهل من قراءات ذات تنوع من مصادر شتى.

وأحسب أن صفة الكراهية وسوء الظن وعدم الاعتراف بالفضل تلك أول شيء لم أجده عند من برز.

وليس إلا النقاء والوضوح وبيان الهدف السامي. هذه ثانية من الأثافي، كانوا عليها يتكئون، وكانوا يدأبون نحو تخصص حي منذ النعومة المبكرة كحال سيبويه والفراء، وكحال البخاري ومسلم والنووي، وكحال الجوهري وابن تغري بردي والقلقشندي وابن قتيبة والعيني... وإنما همهم في العلم اللغوي أو العلم النحوي أو العلم المطلق في سياسة فقه الأحكام إنما ينشدون معالي الأمور بجديد البحث وجليله ومتينه.

فكانوا يطلبون من غيرهم من الوراقين المشرفين على الكتابة والنشر الصف واللصق على سبيل قويم، والمتابعة، وكان الوراق يفرح عند الثناء عليه أو أنه قد وصل إلى سمعة سامقة ظنًّا منه أنه في صفهم، حتى إذا مر الدهر فإذا هو يهوي كجذع شجرة في منحدر وادٍ سحيق.

فخذ على سبيل المثال من العلماء النابهين:

١- ابن منظور: لا جرم، فهذا الرجل منظور من حيث الحس ومن حيث المعنى، لم يُرضِه إلا أن يكسب العلم بالسفر والسهر وخلو القلب من الشواغل، حسها ومعناها، وكان جادًّا ثقيلًا، وكان ذا خلق حسن، ويعرف المعروف، ويجازي عليه.

٢- الفيروز أبادي: كان ذا جلد وسكينة، وكان تعلوه المهابة والتوخي والحذر، وكان قد تضلع قديمًا بنسق لغوي واحد ومقياس واحد وميزان واحد في معرفة الألفاظ والأماكن، وكان حسن المعشر ودودًا.

٣- الجوهري: على قلة إنتاجه وما قرأته عنه لكنه كان ذا ميول جادة مركزة على الاستقراء ومعرفة دلالة الألفاظ على المعاني، ولعله كان يساهر الليل حتى يقف على المراد، وكان يكرم الوراقين إذا خدموه، وأشرفوا على ما يكتب.

٤- النووي: وهو من شارحي صحيح مسلم، لكنه غاص بعيدًا في أساسيات علم اللغة وعلم النحو والبلاغة، وقد عالج كثيرًا من الألفاظ مما ورد في (مسلم).

وإنك لتعجب من هذا الرجل الذي جدد وسبق في حال نسق طردي لم يسبقه إليه غيره؛ ولذلك نوع الاستقراء اللغوي والنحوي وفقه الأحكام في كتاب الجليل (المجموع).

ومع أنه قد وقف في طريقه، ونبذ وترك إلا أن الله جَلَّوَعَلَا جعله من الخالدين.

٥- ابن قتيبة: لقد قام الأدب وفقه اللغة ودلالة النحو على واقع حي مبارك عني به هذا الرجل؛ فأجله النقاد من معاصريه ومن بعدهم، وقامت حوله كثير من الدراسات لغوية وأدبية، ولا سيما في غريب القرآن وغريب ألفاظ السنة، وكذلك الشعر وطبقاته.

ومن عجائب الأمر في هذا الإمام أنه في وقته لم يؤبه به، بل قطع الطريق عليه، ومن قطع الطريق عليه ذهب في مهب الريح، ويسَّر الله لهذا الإمام صنوانًا وغير صنوان من علم جليل فريد.

ولست أظن -ولا غيري كذلك فيما يظهر لي- أن أحدًا قد يستغني عن (أدب الكاتب) أو (عيون الأخبار).

٦- ابن هشام: لقد قال عنه ابن خلدون في المقدمة: «كنا نسمع به ونحن في المغرب أنه أنحى من (سيبويه)».

وهذا من باب المقارنة للمفاضلة على وجه يصح.

وابن هشام هذا -لا شك- أنه إمام في النحو واستقراء الوارد عن العرب فيما بثه في (أوضح المسالك). وهذا الكتاب شاهد على عقله ودرايته وإضافاته.

ومع أنه قد زاحمه بعض القول في زمانه إلا أنه انسحب، لكنه ظهر من جديد حينما تعب الآخرون؛ فصفق له العلم، وقال: «أنت مني بمكان».

ولا شك أن في تراجم اللغويين والنحويين وعلماء الحديث الذين جمعوا بين هذا العلم وعلم اللغة والنحو في تراجم هؤلاء دافعًا قويًّا لمن أراد أن يتحرر من الدونية أو الكراهية أو الحقد.

فيه دافع لحسن الخلق وصفاء النفس ورد الفضل إلى أصحابه مهما كان في النفس، ومهما يكون، فإن الله جَلَّوَعَلَا إذا أراد شيئًا تم.

أزمة العلم والعلماء في الدولة المعاصرة (١)

العلم: (بكسر العين) مصدر عام، أو قل مصدر مطلق.

العلم: الفهم والإدراك.

العلم: علم: (بفتح اللام) على ذاته ليختلف بهذا عن (المعرفة).

العلم: مصدر كل علم مستقل بذاته كعلم الطب وكعلم السياسة والقضاء والحديث والفقه واللغة مثلًا، ولا يصح بحسب الاستقراء التتبعي لحالات البشر أن يوصف أحد ما أنه أحاط بكل علم، ولهذا تتفاوت نسبة العلم بين شخص وآخر حتى في (العلم الواحد).

العلم: ضد الجهل.

العلم: سعة النظر وفهم المسألة التي بين يديه يدي العالم.

ولهذا يختلف العلم عن المعرفة، فالعلم عمومًا الإحاطة بعلم ما. أما المعرفة فتلك هي: جزئية الإحاطة بعلم ما، والعلم يحصل تفضلًا من الله تعالى (بالموهبة) أما (المعرفة) فتحصل إذ تحصل بالاكتساب، ولعل سبب التجديد الذي حصل خلال القرون: الثاني إلى السابع الهجري أن العلماء هناك تميزوا بصفات منها:

١- حرية البحث.

٢- التخصص الدقيق.

٣- طول النظر وكثرة السفر للقاء كبار العلماء في الأمصار.

٤- تعظيم العلماء بعضهم لبعض.

٥- نبذ كثرة النقل والتكرار.

٦- طرح أسلوب الوعظ.

٧- طرح وترك أسلوب الإنشاء والخطاب المباشر.

٨- قوة الموهبة وتغذيتها بترك الحرام وسوء الخلق خلال النقد أو النقاش.

٩- تكرار القراءة وكثرة معاودة تجديد النية أنها لله تعالى.

١٠- شدة البعد عن التصنع، وكان إمام بكسر الهمزة (إ) (إمام الحرمين) فيخاف ذلك كثيرًا ولهذا: ساد.

١١- معرفة ضوابط العلم مع فهم دلالات الآثار وتطبيقها على الواقع.

١٢- الابتعاد عن المراء وكثرة حب الظهور.

١٣- استقصاء المسائل العلمية بفهم وقوة وعي.

ولهذا نجد في مثل هذه الكتب شيئًا من ذلك ككتاب: (الرفع والتكميل) و(هدي الساري) و(عمدة القاري) و(شروط الأئمة الخمسة) و(شرح النووي لمقدمة صحيح مسلم) و (الرحلة في طلب العلم) و(رواية الأكابر عن الأصاغر) و(شرح السيرافي لكتاب سيبويه) و(الخصائص) و(تدريب الراوي) و(إرشاد الفحول) و(الفروق) و(المحلى والمجلى) و(المغني والشرح الكبير) و(يتيمة الدهر) و(تحفة الأحوذي) و(طبقات المحدثين).

وليس اليوم بفائت على ما سمعته أو نقل إلي عن بعض العلماء في بعض البلاد العربية، وقد أحزنني هذا كثيرًا وذلك مثل:

١- هذا يا أخي رأي الجمهور.

لكن أي جمهور أراد؟

هل أراد الفقهاء؟ أو أراد المحدثين؟ أو أراد المفسرين؟

٢- ومثل ذلك (هذا عند الأكثر).

٣- هذا والله هو: الصحيح نعم، المسألة فيها خلاف.

فهل يصلح مثل هذا؟

٤- الله المستعان هذا عندي هو: الراجح.

أين البسط؟ أين الأدلة؟

٥- نعم، العقوق من الكبائر وقد ورد في حديث صحيح الجنة تحت أقدام الأمهات.

نعم، العقوق كبيرة، لكن الحديث: ضعيف.

٦- لعل هذا أرجح القولين.

أين تحرير المسألة؟

أين الأدلة؟ بس كذا فقط.

٧- لقد قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:١٠٢] فعليك بتقوى الله سبحانه، ولا بد من رد ذلك... إلخ.

نعم، رد الحقوق فرض ولا بد لكن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

٨- الله أعلم لكن قد جاء في حديث: «إذا بلغ الماء قلتين».

نعم، الله جَلَّ وَعَلَا أعلم لكن الحديث ضعيف وفيه شذوذ بعلة السند، وهو من رواية ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

٩- ماذا قلت: نعم، نعم: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجًا ومن كل ضيق مخرجًا».

هذا من رواية عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو حديث ضعيف.

١٠- «كلا، لا، لا ليس كما تقول بل تصله، وتزوره؛ لأنه ورد في الأثر الصحيح: الأقربون أولى بالمعروف».

صلة الأقارب واجبة لازمة والصلح خير دون ريب لكن المشكلة أن هذا الأثر الصحيح ليس بصحيح بل هو أثر: موضوع.

قلت: وقد كثر استعمال هذا حتى عند بعض طلبة العلم، ويردده بعض المثقفين، والحقيقة بحسب المعيار النقدي وسبيل النظر التقويمي لما هو حاصل في كثير من البلاد العربية من بعض العلماء حيال الطرح البحثي، أو الإجابات، أو الدروس العلمية أن هذا أمر يحسن تدارك أمره من قبل العلماء أنفسهم، فلا تكون ثمة إجابة، ولا يكون البحث العلمي أو الدرس أو المحاضرة إلا بعد تحقيق القول وضبطه بقوة الطرح وإيراد الصحيح من الآثار، وليس على العالم لوم إذا توقف عند حد فهمه إذا لم يكن قد حضّر من قبل حضّر (بتشديد الضاد) أو كان قد تفوته معرفة حقيقة الآثار، ولعلنا بهذا المنهج نفيد، ونستفيد. في هذا الحين وفي كل حين بإذن الله تعالى.

أزمة العلم والعلماء في الدولة المعاصرة (٢)

علم: بفتح اللام/ دلالة وبيان.

علم: شيء ما قائم (وهذا من العموم).

علم: شاخص.

علم: بكسر اللام/ أدرك/ ووعى.

علم: فهم فاستفاد.

علم: بتسكين اللام/ مصدر علم بكسر اللام.

علام وعلامة: كلاهما بتشديد اللام كثير العلم فيما تخصص به.

عالم: يعلم.

عليم: على وزن فعيل، بليغ في العلم.

يعلم: يدرك/ ويعي.

وهذا بعض تصاريف المصدر المطلق (العلم) وكنت قد بينت شيئًا من ذلك سلفًا، وإنما قصدت هنا كما كنت قد قصدت هناك أن العلم له أهله يتصفون به وقد أسلفت في الجزء الأول صفات الموهوبين والمجددين من العلماء، وذكرت شيئًا ذا بال من كتب مهمة يعاد إليها في مثل هذا.

والآن أذكر بعض صفات العلماء العظام (البدنية والنفسية) بحسب استقرائي في مطولات التراجم لكن دون تفصيل ولعل الإشارة تكفي عن الإطالة:
فمن تلك الصفات البدنية:

١- النحافة/ غالبًا.

٢- الميل إلى الطول قليلًا.

٣- الصلع المبكر.

٤- سرعة الشيب.

٥- قلة النوم.

٦- كثرة الصمت.

٧- عدم كثرة الظهور.

٨- شدة الحساسية.

٩- ملاحة ظاهرة.

١٠- نبذ الحسد والمماراة.

أما الصفات النفسية:

١- فسرعة البديهة لكن المركزة.

٢- شيء من الغموض.

٣- الحذر.

٤- بطء الإجابة والرد.

٥- الانطواء.

٦- كراهية الحيف والتملق.

٧- عنف النقد لكن ليس دائمًا.

٨- بساطة السكن والمركب والملبس.

٩- حسن الخلق وجمال القول واللباقة.

١٠- لا يعرف المداهنة خاصة في (الثوابت).

١١- شدة الندم فيما يخطئ أو قد يحيف.

١٢- كثرة القراءة مع الهوينى.

١٣- ندرة حضوره الاجتماعات ونحوها.

١٤- غالبًا يكون عرضة لسوء الفهم.

١٥- وهذا مهم جدًّا في حياة العلماء الموهوبين ولا أقصد هنا النوابغ أو الأذكياء منهم بل (الموهوب).

وهذا الأمر النفسي هو قوة استحضاره للمسائل العلمية المتعارضة من خلال فهم الآثار وحفظ، فهو يدرك جيدًا:

١- الناسخ والمنسوخ.

٢- المطلق والمقيد.

٣- الصحيح والضعيف والموضوع.

٤- العام والخاص.

٥- دلالة اللغة على المراد.

وهذا (اليوم) لا أدري إن كان موجودًا لكن قد يكون في (الزوايا خبايا) ولهذا نجد العلماء اليوم لا يستحضرون هذا ذهنيًّا بل هم يبحثون أو يكلفون من يبحث لهم وقد يقع حتى مع البحث من هنا وهناك الخطأ غير المقصود.

وعلى كل حال فكم أود النظر بعين الاعتبار إلى هذه الصفات لاستدعاء اللا شعور لجلب الموهبة ولو المكتسبة، والمرء يعرف نفسه خاصة العلماء الذين يريد الناس منهم الإضافات النوعية على غرار (ابن نجيم) في كتابه: (الأشباه والنظائر) والزركشي في كتابه (البحر المحيط) والدريني في كتابه (المناهج الأصولية) والنسفي في كتابه (كشف الأسرار في شرح المنار) وكتاب (القواعد) لابن اللحام و(المفصل في علم اللغة) للزمخشري و (أصول الجصاص) وكتاب (العقد المنظوم في الخصوص والعموم) للقرافي، ولعلك تضيف إليها تلك الكتب التي ذكرتها في الجزء الأول من العدد السالف.

أصول النقد والنقل بين العلماء والكتّاب في هذا الحين

أسسَ كثيرٌ من نقاد العلم الرزين أصولًا متنوعة لتقويم مسار العلم نفسه خلال القرون الثاني إلى السابع من الهجرة، ووضعوا إلى جانب هذا قواعد ذات مسار مختلف للوصول بالعلم إلى السبق من خلال بذل الآراء والاجتهادات من عمق الاستقراء ومنهج الطرح المتين.

كل هذا منهم لألّا يختلط الوعظ وتختلط النصيحة ويختلط الاجتهاد الإنشائي بحقيقة النقد، فيضيع العلم، ويصبح العلماء أو جلّهم كما هو اليوم يكررون، ويستطردون، ويتعجلون.

أقول: وما المثقفون والأدباء من هذا ببعيد.

فحين أسس محمد بن سورة الترمذي كتابيه (العلل الكبرى) و(العلل الصغرى)، وحين وضع مسلم مقدمته على صحيحه وصنف الطبري (معجمه الكبير) و(الأوسط) و(الصغير)، وحين دلف السيرافي بشرحه لكتاب (سيبويه) وقام الذهبي بتراجم الرجال في سفره (الكاشف) وفعل ذلك السيوطي في (تدريب الراوي) نهض النقد على الحقيقة، ومات كثير من كتب أخرى ليست إلا نقولات وترددًا. خذ مثال ذلك (مروج الذهب) للمسعودي، وهذا مثال إن شئت فقس عليه غيره تقبض على وتد قائم لا يزول.

فالنقد أصل في الحياة، والنقد مهم بذاته، فإذا فقد أو فهم على غير وجهه لم يكن العلم في السبيل الصحيح إنما يكون أكثر ما يكون في دائرة الخطاب المباشر أو النصيحة أو شرح الآثار، وفهم هذا على قياس فاسد أو اجتهاد ظني كم ندم صاحبه بعد حين طويل فيما ظن أن الحق معه.

وإذا كان النقد موهبة فإنه يحتاج إلى عقل كبير فيه استعداد خلقي لتقبل هذا العلم وإلا فإنه يذهب

ما ينقله أو يحفظه شذر مذر أو أنه يطرح آراءه كيفما اتفق خاصة الكتاب الذين يجمعون المعلومات من هنا وهناك، ويبذلون الآراء وينسقونها لكنهم لا يذهبون إلى السبيل الصحيح. وهم لا جرم يجتهدون ويحاولون الوصول إلى الحقيقة لكنهم لما لم يكونوا من ذوي الاختصاص الدقيق فإنهم يقعون في خطأ الاجتهاد. خذ مثلًا الكاتب الفاضل فهد بن عامر الأحمدي الحربي حينما ناقش حديث الذباب في صحيح البخاري وفي غيره، وقد أجمع علماء الجرح والتعديل وعلماء الأسانيد أنه من أصح المتون والسند، حينما ناقش هذا الحديث دون تقعيد أو تأصيل لنوع الذباب ونوع الأمراض فإنه وقع في خطأ الاجتهاد، ولما لم يكن من أهل هذا فإنه زل مجتهدًا.

وبحسب معرفتي بالطب العضوي ومعرفتي بكثير من أمراض الجراثيم فإنه إلى اليوم لم تكتشف بعض الأمراض التي يحملها الذباب بل إن الذباب يحمل أكثر من ثلاثة عشر مرضًا لم يكتشف منها إلا سبعة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن الجناح الذي فيه الدواء والذي أنكره الحربي لم يقطع في المراكز الطبية المتخصصة أنه ليس فيه دواء. ومن المعلوم أن كل حيوان وكل طير يملك خاصيتين: خاصية المرض وخاصية الدواء.

خذ مثلًا النسور فإنها تأكل الجيف المنتنة جدًّا لكنها تعالجها من خلال الغدد المعالجة، كذلك الذباب فإنه يملك خاصية الدواء، وهذا ما فات على

الحربي، وأنا أقدره كثيرًا لكن ليته يعود في أطروحاته عن مثل الذباب والجن والآذان في السماء إلى ذوي الاختصاص لكان هذا أسلم له.

وخذ مثلًا د. محمد بن شحرور الذي يطرح الآن تفسيرًا عقلانيًّا أخضعه للاجتهاد العلمي وهو لا يملك هذه الأداة الأخيرة ولذلك وقع في شرح الآيات في أخطاء لا مبرر لها، فهو يجهل أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمطلق والمقيد والعام والخاص، كما أنه يفوته حقيقة خلق الملائكة

وأصولهم وكذلك الجن وآيات الغيب ولهذا وقع في الخطأ.

وهو إلى هذا يطرح الفكرة ويطرح الرأي، ثم يأتي بالآية والآيات ويخضعها لما رآه وهذا نقص في الآلية ونقص في الاستيعاب وقد كان يمكنه قراءة التفاسير ثم الجمع بينها ليخرج برأي سديد.

وكما فعل شحرور فعل ذلك أبو رية حينما شرح بعض الأحاديث المتنوعة أخضعها ليس للعقل بل لمجرد فهم ونقل لم يسر فيهما على الأقل بفهم سليم ولا سيما وقد أخذت عليه كثيرًا لمزه لإمام المحدثين أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهذا وضح أنه إنما أراد مخالفة مسار العقل السليم للوصول إلى النص الصحيح، ولهذا كان أسلوبه يميل فيه إلى الإنشاء والطرح المستطيل.

وهذا صنعه أيضًا (إسلام البحيري) وإسلام هنا في أسلوبه تجاوز إلى حد الجرأة دون إدراك منه من مخالفة لأصول النقد، فأصبح كلامه عن بعض الأحاديث التي يوردها وكذا الآيات أشبه ما يكون بكلام المفكر الذي يتكئ على الرأي الأحادي، ولعل السبب عند (إسلام) أنه لم يدرك حقيقة صحيح الآثار من ضعيفها ولا كذلك حقيقة مذهب العقل في تلقي هذه الآثار، والذي فاته كثيرًا وهو معذور هو أنه ليس متخصصًا في مثل هذا ولذلك اجتهد فزل، والمشكلة عند إسلام أنه يصر على رأيه.

وتجد وأنت تستمع إليه كأنه هو قد مل من نفسه.

ومن قبل ذلك صنع (محمد أراكون) الذي حاول أن يقلد (مالك بن نبي) وكلاهما عاشا في فرنسا ردحًا من الزمن لكنه لم يسر على منهج أصول النقد، فصارت أطروحاته كغلاف يجلبك إلى الداخل، فإذا أنت صرت في الداخل داخل هذه الغرفة مثلًا وجدت أنك في ظلام.

وقد كان محمد أراكون يستطيع التفرد بآرائه ووجهات نظره وإسلام البحيري مثله لما يملكان من جرأة وإن كان محمد أراكون رَحِمَهُ ٱللَّهُ أوسع منه معرفة إلا أن البحيري أراد تقليد الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ولا سيما في منهجه في كتابه المشهور (وحي القلم) لكنه لم يستطع لخلل ما عند البحيري.

وهذا وجدته قديمًا خلال تراجم متطاولة مضت من عهد قديم في كتاب وتراجم وحياة (عمرو بن عبيد) و(بشر المريسي) و(ابن عربي) و(الجهم بن صفوان الترمذي) و(الحلاج) و(ابن سينا) خاصة في كتابه (الإشارات)،

ولهذا لو كان هؤلاء بيننا اليوم لعلهم يقرعون سن نادم على ما كان منهم لتفتح العقول وبيان كثير من الدلالات على حقيقة أصول وقواعد فهم العقل السليم للنص الصحيح.

ولما يرونه من فهم جيد لدلالات النص بحسب ما اتضح من آيات الكون المقروءة وآيات الكون المنظورة ولا سيما تطبيق هذا النص على واقع النفس وواقع الحال وواقع الظرف المستديم، وذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧]، وهو ما يسمى التمدد الكوني عبر الحياة، وقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١]، وقد ثبت عن طريق بحث الأنسجة والحمض النووي والبلازما والخلايا المتعددة أن هناك أمراضًا لم تكتشف بعد في الإنسان بل هناك بعض الأعضاء لم يكتشف الطب الدقيق وظائفها. خذ مثلًا (الغدة النخامية)، وخذ مثلًا (البروستات) وخذ مثلًا

(الشعيرات الدموية في مؤخرة الرأس)، ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:٥٣].

والحقيقة أنني قد أقسو لكني لا أظن أني قاسٍ إلى درجة قد يأخذ علي غيري هذا لكنني رائدٌ لا أكذب القوم وإنما سبيلي أن النقد ذات النقد لا دراسة الأعمال أو عرض المعلوماتية أو المنقولاتية هو ما يمكن أن ينير الطريق كل طريق في سبيلٍ يظن صاحبه أنه أفاد وقد يكون كذلك لكنه له دون غيره دون منكر من منكر قول رشيد.

وفي محاولاتي المتعددة التي أطمع فيها بعثًا جديدًا في مسأله النقد العلمي أحاول ألا آلو جهدًا أن يفهم مرادي على أن السبب في هذا كله يعود إلى أن الفهم السائد لدى العلماء المعاصرين إلى أن النقد إنما هو بذل الرأي و إعطاء الملاحظة عند تحرير الكلام لنشره في كتاب أو رسالة أو مقال أو أنه العرض لكتاب أو فكرة أو رأي.

ولهذا جرى الأمر على هذا كثيرًا وتعمق في اللا شعور لدى العلماء الذين يزاولون البحث العلمي ومثلهم جملة من المثقفين أن النقد هذا هو دون سواه حتى إذا فهم الأمر على غير هذا فيعد نشازًا قد لا يدركه، لا يدرك معناه إلا الآحاد.

من أجل ذلك فقد لاحظت في الوسط العلمي و الوسط الثقافي أن هناك قسوة في الآراء المطروحة ووجهات النظر المبثوثة؛ قسوة في الرد والنقاش وأحيانًا الإصرار على وجهة النظر وهذا سائد اليوم في الهيئات العلمية ومراكز البحث العلمي

وكذا ما يتم نشره في المجلات المحكمة وبعض المقالات في الصحف السيارة وهذا كله ينطبق دون ريب على محاولة دراسة الوضع العلمي أو الوضع الثقافي لكنه أبدًا لا ينطبق على النقد؛ لأن النقد له معاييره واتجاهاته كما أن له أهله وإن لم يكونوا موجودين بحسب نظرة المتأمل والمكيث والمطلع الخريت والمتابع

الحصيف النقد مسألة إلهامية مسألة موهبة يمتاز النقد الحر بقدر كبير من الأريحية وسعة الباطن ودراسة أي عمل ثم طرح الآراء حول ذلك، ولكن هذه الآراء توحي إليك بأنه يلزمك الانصياع لها لحقيقة هذا النقد الذي أضاف جديدًا إليك وبين خللًا تقبله حتى ولو لم تقبله من باب المناكفة، وسوف أبين هنا أمثلة حقيقًا بها أن يفهم بها الفرق بين النقد ووجهة النظر وبذل الملاحظة وقد يتضح هذا للمتابع واسع البال واقعي الحكم، ولنأخذ هذه الأمثلة وهذا من باب تطبيق الحاصل على ما يمكن حصوله في هذا الحين وفي كل حين وأنا أجعل هذا أمثلة حية للعلماء والمثقفين:

أولًا: ما حصل من مالك بن أنس الإمام المعروف وصاحب (الموطأ) حينما جزم بمذهب أهل المدينة، وشدد على هذا ولم يرَ غيره إلا لمامًا وحجته في هذا أن المدينة مأوى النبي ﷺ وكذا هي مأوى الصحابة رضي الله عنهم ومنها خرج العلم بآثاره وأسانيده، وخالف مالكًا جل العلماء؛ خالفوه لأن العبرة هنا بصحة السند وقوته وصحة المتن ولأن الصحابة تفرقوا في البلدان.

ونشر العلم في سياسة المعاملات حينما كانوا ملوكًا وأمراء وفي السياسة التعبدية حينما جلسوا للعلم وإخراج أجيال جديدة؛ الذين هم يعرفون بالتابعين (فهذا يسمى وجهة نظر)

ثانيًا: مثل ما جرى بين الإمام أحمد بن محمد بن حنبل والإمام إسماعيل بن علية أحد كبار العلماء حول خلق القرآن وكلاهما إمام جليل وقدير (فهذا يسمى ملاحظة).

ثالثًا: مثل ما جرى بين البخاري ومسلم حول حديث (كفارة المجلس) فمسلم يصححه والبخاري يقول: إنه حسن لذاته، ثم عاد مسلم لقول البخاري بعد أن تدبر ونظر السند (فهذا يسمى بيانًا أو إيضاحًا).

رابعًا: مثل ما جرى بين ابن حجر وكبار العلماء حول حديث (إذا بلغ الماء قلتين). كما هو في (بلوغ المرام) وهو كتاب معروف، فابن حجر يميل إلى تصحيحه وكبار العلماء يرون أنه ضعيف وهو الصحيح (وهذا يسمى خلافًا لفظيًّا) وقس على هذا.

ولكي أقرب المسألة لنعرف حقيقة النقد وأنه مختلط بغيره بسبب نقص آلية الفهم كثيرًا ما جرى بين حمد الجاسر وعبدالقدوس الأنصاري (حول ضم جيم جدة) فهذا عند التدبر وسعة الفهم المحيط (يسمى اختلاف وجهة نظر).

خامسًا: ومثل ذلك ما جرى بين ناصر الدين الألباني وغيره من العلماء حول كشف وجه المرأة، فالألباني يرى جواز ذلك وغيره لا يرى ذلك (فهذا يسمى اختلافًا في الفهم).

ولأن الألباني أجرى الأمر دون وقوف على المتقدم والمتأخر والناسخ والمنسوخ من الآثار، فإنه قال بالجواز

(فهذا يسمى الاجتهاد الأحادي).

سادسًا: ومثل ما جرى بين طه حسين وبعض العلماء النقاد حول الشعر الجاهلي وأن كثيرًا منه إن لم يكن كله منحولًا، فهذا يسمى (وجهة نظر) لكنني وغيري نجد العذر لطه حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من المختصين بدراسة الأعمال ليس إلا كما أنه نقل هذا من المستشرق وهو مبشر (مرجيلوث) دون تمحيص وقوة ملاحظة (وهذا يسمى الرأي المجرد) أو تبعية التقليد.

وإذا كان النقد أعني ذات النقد ليس كذلك فيما ضربته من أمثلة حية فإن النقد إذا أردته حقيقة دون شرح أو إطالة فإنك واجده من خلال هذه الأسفار

١- (الأدلة الاستئناسية) للإمام الكتاني.

٢- (تقويم الأدلة) للإمام السمعاني.

٣- (النهاية) للإمام ابن الأثير.

وقد أجاد من المعاصرين في مسألة النقد مصطفى بن صادق الرافعي وعماد الدين خليل وعبدالله دراز ومحمود شاكر وأحمد شاكر.

كما تجده في مضامين كلام الإمام البخاري في تراجم أبواب الصحيح وهذا من المتقدمين وكذا في (الزوائد) للهيثمي وعند الشيخ المباركفوري في (تحفة الأحوذي) من المعاصرين

وتجده في ثنايا طرح وليد الأعظمي في نقده المعروف لروايات (الأغاني).

فكل من ذكرتهم في هذا الجزء يعتبر كلامهم حول ما أوردوه وبينوا ما له وما عليه يعتبر نقدًا على حقيقته، ولهذا تجد عامة العلماء والمثقفين من ذوي الباع الطويل في التحرر من القراءة القليلة والفهم الخاص يعولون عند النقد وتقعيد المسائل على مثل هذه الكتب ولن أنسى (الفروق) للقرافي وكنت ألزم القضاة ورؤساء المحاكم بقراءة هذه الكتب مع شيء من التأني وضرورة سرعه إنهاء القضايا بحيث يقتنع المدعي والمدعى عليه، فالنقد كما قلت آنفًا مسألة (إلهام وموهبة) ولعل فقده اليوم أصل من أصول كثرة ظهور الأساليب الإنشائية العجولة وكثرة الاستشهادات والاستطراد حتى مع أسفي الكبير في بعض الرسائل العليا الماجستير والدكتوراه وهذا قد فهم على أنه هو النقد وهذي حقيقة لا وجه لها.

وأغلب الظن أنه قد رسخ في العقل الباطن حتى لدى كثير من العلماء أن هذا هو النقد دون سواه بل لعل بعضهم في عناوين ما يصدره من كتب أو مقالات يجعل كلمة (نقد) أو (النقد) هكذا بينما هذا لا يعدو أن يكون ما يكتبه في كتابه أو كتبه إنما هي آراء ووجهات نظر وهذا دون نكير ما جعل هذا النوع من الأساليب يكون نقدًا بحسب فهم خاص ورؤية خاصة دون فهم علمي تقعيدي جيد سليم لحقيقة النقد من وجه قائم حي دائم مستديم.

معجم الأقوال في عرض الكتب في الدولة الحديثة

جرت العادة في إهداء الكتب عند كثير من الكتاب منذ ظهور الصحافة ووسائل الإعلام. في الدولة الحديثة بشكل عام أن يكون الإهداء على ما يأتي:

١- على سبيل التقدير.

٢- أو على سبيل بيان الملاحظة والرأي.

٣- أو على سبيل الرغبة في الإطراء.

٤- أو العرض للكتاب والبيان.

٥- أو يكون على سبيل كتابة المقدمة لسبب أو لأسباب.

٦- أو أن يكون من أجل تحقيق الآثار وبيان الصحيح منها والضعيف.

هذه غالب أسباب الإهداء ولا سيما الكتب العلمية لكتب اللغة والنحو وما كتب الثقافة عن هذا ببعيد.

وسوف يتبين هذا بحسب جهدي من النماذج الآتية شيء ليس بالهين ولا سيما ما كان على سبيل الإطراء والمدح.

ولعل هذا النوع هو الشائع بين كثير من الأدباء والكتاب، ولعلي لا أبعد النجعة إذا قلت: إن هذا النوع هو الشائع على قائمة دائمة في سبيل مقيم.

وأغلب الظن أن المشكلة في هذا النوع أو إن شئت قل: العيب أن بعض من يطالع هذا العرض لهذا الكتاب قد يقبل ما قيل عنه مدحًا وثناءً على مصنفه أو جامعه، فلعله يقبله على العلات فيعمى عن عيوبه ومثالبه، ولا سيما أصول الأخطاء في أساسيات ما يجب طرحه من المؤلف نفسه كنقد الأئمة في اللغة والنحو أو الحديث أو الثقافة.

ومن هنا أقول: يزداد أو قد يزداد عمى المصنف عن حقيقة طرحه الذي يجب أن يكون عليه من التأصيل والتقعيد وبذل السعي للإضافات النوعية، وأجزم أن اللوم كله يقع على من عرضه وكتب عنه مدحًا وإطراء فهذا سبيل مديم لعله يسهم في نشر العلم والثقافة على علات ما كان يجب أن تكون لولا المبالغة من هذا العارض لهذا الكتاب.

ولعل الشواهد كعادتي في كثير من أطروحاتي هي السبيل الدائم لإثبات الحاصل من خلال الكتب المعاصرة.

أولًا: فخذ مثلًا هذا القول: (أهداني أستاذي كتابه (...) وقد استعرضته كثيرًا لكن ما أوقفني هو ندرة ما قد أورده أستاذنا من آراء جيدة تستحق الإشادة والتنويه).

ثانيًا: وأردف فهو يقول: «وقد كان أستاذنا القدير يدرسنا أيام الطلب، فكان بمثابة المعلم والأب».

ماذا نستفيد؟

وماذا نأخذ من هذا العرض؟

لا شيء، فكيف مثل هذا يكون؟

وإذا تقدمت العاطفة الجياشة لعله من العلل تكون العاطفة هي التي تملي على الذهن ما يترجمه القلم وهذا من أخطاء المعاصرين.

ثالثًا: وخذ مثلًا آخر دليلًا على واشمة تدل على نفسها بما لا يجب أن يكون «هذا كتاب صدر عن دار (...) للناقد الكبير (...) وحري به أن يكون فتحًا جديدًا للنقد المعاصر مع أنه عرف عنه سعة الاطلاع على المدارس النقدية وهذا الكتاب قد أتى بما لا يدع شكًّا أنه لا يحتاج إلى تعقيب».

ماذ يريد هذا العارض لهذا الكتاب؟

هذا العارض القارض الذي خلط بين النقد وبين بذل الرأي فقط قد كان بعيدًا كل البعد عما يوجب النشر.

ويتبين لي من خلال هذا الإطراء الذي قبله أنه يجر إلى الاستمرار على وابلة على شجر ميت لا يقوم.

وبهذا تختلط مع الأسف عند الناس كثير من المفاهيم والآراء ومن نافلة القول: فلعل بعض من تعرض كتبه قد يعطى هالة ليست له، فهو نفسه قد يقع في دائرة الانغلاق، فلا يضيف جديدًا.

ومن هنا قد يتسبب هذا في تضييع العلم بالنقد كما يشتبه النقد الموهوب غير الموجود بالأساليب الإنشائية الجريئة المثيرة والمعاندة.

وهذا معلوم من واقع الحال بالضرورة، فما عليك إلا القراءة بتدبر وعمق صافيين لتجد أنه لا يمكن الرقم على الماء كما جاء في أمثال الأقدمين.

رابعًا: وهاك نموذجًا آخر قد يغني عن كل نموذج إذا تدبرته بذات تجرد وشفافية قراءة وإبراز العقل دون أن تكون للعاطفة سبيل إليه: «ليس ابن مالك إلا وقد أخذ من غيره دون التنويه إلى هذا وليس لابن مالك في ألفيته النحوية إلا العرض فقط».

هذا كلام لا جرم جاء على علاته وفيه جرأة شديدة وكأنه خبر حقيقة ابن مالك عن طريق القياس العقلي أو التشبيهي أو التمثيلي أو على الأقل القياس الظني.

لكن أتدري لماذ كتب هذا؟

لعلي أدري أو لعلي قريب أن أدري من باب التحليل النفسي السريري، لقد كتب هذا ونشره من باب التعالم وجلب النظر وإلا فهناك في آليات الطرح الجيد النزيه، هناك فرق بين السطو والاقتباس وبين السطو وتوارد الخواطر وبين السطو والاستشهاد الظني وهذا معلوم في أصول النحو وعلم البلاغة في سعة أبوابها وما طرحه الأولون عبر القرون من خلال الشعر والحكمة والمثل بل أيضًا ورد هذا في الآثار عند أصحاب الكتب الستة.

خامسًا: وخذ كذلك «لقد كان ابن مالك ذكيًّا حينما صنف ألفيته يقتبس من غيره، ولا يذكر شيئًا عن هذا».

يريد أنه ذكي في كيفية السطو، وأنه ذو دهاء وقد غاب أو لعله قد غاب عنه أنه يوجد اليوم فحول كبار جليلو القدر عرفوا ترجمة ابن مالك حياته، شيوخه، تلامذته طريقته، كذلك أصول ألفيته لم يتعرضوا لما تعرض له هذا الكاتب بل كثير منهم ضرب كفًّا بكف على مثل هذه الجرأة.

سادسًا: وهذا نموذج آخر جاء فيه ما يحسن تدبره «ابن منظور لا أحد يشك في مقدرته على استيعاب ما يريد أن يبين معناه في اللسان لكنه ينقل عن غيره، ولا يحيل».

سابعًا: ومثل «ففي (لسان العرب) محطات لم يشر إليها أنه نقلها بينما هو قد نقل».

هذا وذاك قد دلّا جزمًا على أن هذا الإمام قد سطا لكنه سطو ذكي إذ إنه قد أغفل المصدر الذي أخذ منه.

ولست أشك أنه يدرك من نفسه أنه يخطئ؛ لأنه أبعد عن ذهنه حقيقة التلازم فيما يلزم أن يكون سطوًا أو استشهادًا أو هو توارد خواطر على سبيل عموم العلم الذي يجب أن يكون.

ومثل هذا لا جرم إذا استمر الأمر على ما هو عليه وهو قليل قد يسبب قلقًا خاصةً في الرسائل العلمية وبعض الحوارات والندوات وما يتم نشره.

سابعًا: وهذا مثال يقوم ولا يقعد على الإطراء الذي أرى أنه يحسن بالعلماء والكتاب أن يفطنوا إليه، فقد جاء في بعض الأطروحات مما تم نشره «أهداني د. (...) وهو أحد تلامذتي الذين درسوا علي أهداني نسخة من كتابه (...) بعد طباعته أخيرًا فكأني به قد سار على منهج وطريقة السيرافي في شرحه لكتاب سيبويه لكنه كحقيقة علمية أثبتها له قد جاوز السيرافي كثيرًا).

حاول معي وأنت تقرأ هذا الكلام مايأتي:

١- (الذين درسوا علي).

٢- (كحقيقة علمية).

٣- (قد جاوز كثيرًا السيرافي).

كل ذا الكلام جاء في كتابة مقال شبه أسبوعي قد تمت الحروف فيه بستمائة حرف ٦٠٠/ح/ فكيف يكون هذا؟

لست أعلم أحدًا يقول مثل قد جاوز السيرافي كثيرًا.

ومن المعلوم في أساسيات النقد العلمي والأطروحات النابهة أن من قواعد النقد أصل لا بد منه وهو:

مساواة الناقد للأمر المنتقد، وتساوي الناقد والمنقود في الدرجة، وحسب تحليلي أنه هذا ليس له وجود وإلا لقلت هذا سبق علمي.

وأيضًا فإن تقريرا مثل هذا (قد جاوز كثيرًا السيرافي) يحتاج إلى كتاب مستقل وطويل، كما أنه ولا أقول (قد) بل أجزم الجزم كله أنه يحتاج إلى دراسة منضبطة عقلًا وروية وسعة بال ولا يكون ثمة مجاملة أوكما يقال (رفع المعنوية).

أرأيتم كي إذًا؟

وقد يخال الكاتب نفسه بعد هذا أنه هو هو إذ لم يقم أحد ببيان الحق فيما كتب أو فيما قال على سبيل لا يريم.

ويظن الآخر المكتوب عنه والذي تجاوز كثيرًا السيرافي يظن نفسه حقيقةً أنه كذلك فيقع لا شعوريًّا بمصيدة حيل النفس وتنعدم إليه الرؤية التجديدية من خلال طغيان القلب على العقل وهدم أصول سير العقل ليكون هو المتقدم على العاطفة والقلب معًا، كما لعله يقع بمصيدة الهوى وعمى البال سيان.

ثامنًا: ولنأخذ هذا النموذج (ويحسن به أن يتوقف عن الكتابة لئلا يغتر به القراء).

فما دخل يتوقف عن الكتابة في الكتابة نفسها الحق أقول: إن هذا إقصاء وإنه حكم قاطع وباب اللغة واسع، وسبيل حسن الأخلاق ونقاش المخالف بابه واسع.

فقد كان يمكن أن يقول: لو شاء إن كان محقًّا «فلعله يحسن طريقته في الكتابة» أو «لعله يترك هذا المجال حتى يتروى منه».

أليس هذا حقًّا أن يكتبه بدل هذه الوصاية، فإنه قد يكون من كتب عنه وأراد أن يترك المجال له فقط قد يكون علم شيئًا فات ذلك الكاتب؛ لأن من جهل شيئًا عاداه.

هذا ما كنت أود طرحه وهو مغنٍ عن كثير عن الإطالة، ولعله يكون نوع تنبيه لئلا يقع فيه كتاب وعلماء ومثقفون لهم قدرهم عندي وعند غيري نجلهم كما هي الحال في سالف القدم.

ولعل مراكز البحث العلمية والهيئات العلمية والنخب المسؤولة في نشر العلم والثقافة يدركون أكثر من غيرهم مسؤولية الطرح أمام العالمين من خلال عرض الكتب المعاصرة.

معجم كتب السياسة لبناء العقل

المعجم كتاب من جزء أو هو كتاب من أجزاء يحتوي على ترجمة وبيان كثير من الأسماء والموضوعات والحالات التي يحتاج أمرها إلى تفسير، ولست أظن أحدًا إلا وهو في حاجة إلى المعجم للوقوف على معنى ألفاظه وحروفه لكن غاب عن معناه ودلالته.

وقد ورد في الكتاب الكريم والسنة الصحيحة كثير من الألفاظ يتعذر معرفة معناها إلا بالرجوع إلى المعاجم أو كتب التفسير.

والسنة الصحيحة قد جاء فيها أسماء ومواضع كثيرة يتعذر فهم المراد منها إلا بالعودة إلى معاجم اللغة المعروفة لفهم المعنى منها.

وقد دار في ذهني في هذا الجزء من المعجم أن أذكر طرفًا قليلًا من كتب السياسة الشرعية؛ تلك التي تناولت العلاقات الإدارية العليا وسياسة العلاقات الدولية الخاصة والعامة.

وتلك التي ذكرت السياسة المالية والاجتماعية وسياسة العلم وتوزيع القدرات وبيان حال أنواع الاقتصاد وأنواعه ومداخله ومخارجه وكذا أنواع الاجتهاد السياسي في العلاقات المالية والإدارية وبعث الرسل (السفراء) وهذه الكتب تحتاج إلى قوة تأمل حيث إنها قد جاءت بأسلوب علمي قوي رزين.

والسياسة العلمية الشرعية والسياسة الإدارية، فهناك السياسة الإدارية والسياسة الاقتصادية والسياسة الجنائية والسياسة القضائية: (١) والسياسة الاجتماعية (٢) والسياسة العلمية القانونية، وسياسة الولاية والحسبة.

فمن هذه الكتب على سبيل المثال:

أ- (نظام الحكومة النبوية) لعبدالحي الكتاني.

ب- (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) لإمام أبي الحسن الماوردي.

ج- (كتاب الأموال) للإمام حميد بن زنجوية.

د- (السياسة الشرعية) للإمام ابن تيمية.

هـ- (كتاب الخراج) للإمام أبي يوسف.

و- (الطرق الحكيمة) للإمام ابن قيم الجوزية.

ز- (الأموال) للإمام أبو عبيد القاسم بن سلام.

ح- (الوثائق النبوية) حميد الله.

ط- (سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي.

ي- (المقدمة) لابن خلدون (٣).

ك- (الإدارة والسياسة) للإمام ابن تيمية (٤).

ل- (كتاب الطب) للإمام البخاري (٥).

م- (كتاب الطب) للإمام مسلم (٦).

ن- (الإدارية المالية) للإمام ابن كثير (٧).

س- الجنايات) للإمام ابن قدامة (٧).

ع- (كتاب الإمارة) للإمام ابن جرير الطبري والإمام ابن كثير والإمام ابن الجوزي (٨).

ف- (بعث الرسل (الغراء)) للإمام ابن هشام الأنصاري (٩).

وهذا قليل من كثير من كتب باقية متداولة بعضها يدرس في الجامعات وكثير منها شرح وحقق وأخذت عليه درجات الدكتوراه في العلم كله لكن بين مُقل مكثر.

وإنما ذكرت في هذا الجزء المشهور منها ولا سيما تقعيد وتأصيل كتب السياسة العليا التي لا مناص من العودة إليها.

وهذه الكتب إنما تحتاج إلى سعة وشدة تأمل لإدراك مراميها تلك التي جاءت فيها السنة الصحيحة في أكثر من خمس مئة حديث.

وكذلك يفعل جملة من الأدباء والمثقفين واللغوين في المجامع العلمية والنوادي الأدبية والمراكز الثقافية.

ونقدي لهذا المسلك أن الكتاب الذي يتم شرحه أو الورقة التي يلقى من خلالها القول قد يعود إليهما المستمع في حين قريب أو في حين بعيد، فيجتهد بعد لأي وجهد، فيقف على غير ما استمع إليه، وإن كان ذلك العالم أو ذلك المثقف قد بذلا جهدًا كبيرًا.

لكن تقييد النفس بكتاب أو تقييدها بورقة ذلك يبعد النجعة، ويلغي العقل من مكان قريب.

وقد وقفت على حالات كثيرة لكبار العلماء خلال عهود سلفت، فقد كانوا يلقون العلم مشافهة لساعات طوال دون كتاب أو طرس محمول، ففي سيرة ابن فرحون والقرافي والمزي والسرخسي وابن منده وابن جماعة شيءٌ من هذا جليل، وقبل هذا وجدت البخاري كما وجدت مسلم بن الحجاج والترمذي وسواهم كثير، وجدتهم في جامع (الرصافة) في بغداد وكذلك رأيت معمر بن راشد وعبدالرزاق

وطاوس بن كيسان في جامع (صنعاء) وقبلهم فعل ذلك الإمام مسروق بن الأجدع أحد الأربعة الذين نقلوا عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وفعلها الليث بن سعد وعبدالله بن يوسف وابن لهيعة في مصر، وفعلها الإمام المعروف بسعة العلم وسعة البال إمام الحرمين، وأطال في ذلك سفيان بن عيينة في مكة ومثله الحميدي -بضم الحاء- وفعلها علي بن المديني وابن أبي ذئب ومالك بن أنس في المدينة، كانوا يلوون الرواية والدراية بقوة فهم مع فقه النوازل مشافهة من دون كتاب.

ولست أشك أن إلقاء العلم على المنصات على طريقة الارتجال بقوة وحاضرة عقلية لا حاضرة قلبية هو الأصل الصواب، ولهذا نجد ميزة دون ريب، نجد ميزة حرة تلقائية تولد الثقة بالنفس، وقد يحفز هذا كله اللاشعور، فيجره يجر العالم والمثقف والأديب خاصة في المجامع العلمية والهيئات العلمية إلى عمق النظر وتوليد الاجتهاد والسبق العلمي المتزن الشفاف النزيه.

ولعل ما أكتبه الآن يكون سبيلًا للأخذ به من جميع العلماء والمثقفين كلٌّ فيما يعنيه، وإنما أقول هذا لطرد التكرار ومجرد النقل وكثرة التهميش وهذا مني لعله يفتح بابًا على واضبة من رأي حميد.

العلم... كيف يكون في الدولة الحديثة؟

العلم في أصل تعريفه عند أهل الصنعة أنه «مصدر، والمصدر اسم جامد مبني على السكون». قلت: وهو على هذا أصل المشتقات، وكذلك قال من تقدم.

ويراد به عند عامة النحويين أنه اسم خاص، يعين معناه عينًا لكن على سبيل الإطلاق. ولا يكون الاسم على هذا إلا على سبيل العموم دون تقييد، وعليه فتدخل هنا (المعرفة) وكذا (النكرة).

وهذا -لا شك- عند التدبر والاستيعاب معلوم من حال معرفة هذا الباب بالضرورة، وسوف يتضح لا جرم حقيقة (العلم) (بفتح العين) من أنواعه؛ لأنه لا يمكن فهمه (أي العلم) إلا ببيان أنواعه.

قلت: وهي على هذا النحو:

الأول: الاسم وهو ما دل، أو أنه ما يدل على شيء معين.

الثاني: اللقب، وذلك ما دل على مدح أو ذم أو تعريض بأي منهما، لكن بقرينة المعنى.

الثالث: الكنية وتلك هي: ما ارتبط بأوله (أب أو أم).

وذلك نحو: (أبي عادل/ أم العالمات).

أما اللقب فنحو: (أجود الأخيار) وهذا مدح.

ونحو: (تكلف خطبة) وهذا ذم.

والتعرض مثل: (كتابة كوجه الأسد).

والعلم يتميز عن غيره بالسليقة، وإدراك الفوارق بين الأشياء من (علم، واسم، وحال، وظرف، وتمييز، وصفة).

ومن نوابه القول في هذا، وحكاه غير واحد، أنه لا يصح تقديم اللقب على الاسم. قلت: لا بأس بهذا نحو: (أبو سوء الخلق فلان)، وذلك إنما هو من باب لفت الانتباه إلى شدة اتصاف (فلان) بسوء الخلق.

والعلم على هذا قد جاء أنواعًا، اختلف فيها، لكن محصلة القول هنا لعلها على هذا السبيل:

١- غير مسبوق بالنسبة لمن سُمي به نحو: (محمد) ونحو: (هند).

٢- ما جعل استعماله على حال سابقه نحو: (نمر) ونحو: (ذئب) ونحو: (وردة).

وقد رأيت بعض أهل شرق آسيا وجنوبها يجعلون الاسم جملة مركبة نحو: (شمس الحق) و(صديق الإسلام) و(جمال الطيب).

الرابع: ما كان مركبًا، وهذا وقفت عليه في بعض بلاد من إفريقيا، مثل: ليبيا والجزائر وتونس وخاصة موريتانيا.

البدل... أين النحويون اليوم؟

كنت قد قلت قبل هذا ما حقيقته أن علم النحو وكذا علم اللغة كعلم الحديث سواء بسواء: إنه (موهبة).

وهذا يدركه من لديه حس استيعابي فطن مُديم:

وليسَ يصحُّ في الأذهانِ شيءٌ إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلُ

والموهبة على هذا الأساس أصل في فهم وإدراك المرامي؛ مرامي حالات النحو وحالات اللغة ومواطن (فقه الأدلة) من خلال الموهبة في فهم ضوابط النص الصحيح

ومالم يُعطَ العالم الحظ الوافر من (الموهبة) فإنه قد يميل للإجتهاد والتنظير، ثم هو يقع في الزلل ولكن هذا هو مبلغه من العلم، ويظن على هذا أنه بذل، فأجاد.

والمشكلة هنا وعبر القرون بنسب متفاوتة أن الموهوب من طبعه الانطواء وكراهية الأضواء، وإنما يعرفه ويعي حقيقته من يصاحبه ويستمع إليه شخصيًّا في طرحٍ علمي أو بذل رأي أو اجتهاد، ويندر أن يكون في عملٍ ذي كلفة مسؤولة لشدة حساسيته وصراحته.

والمشكلة الثانية أن نوع الموهوب بحسب الإختبارات الدقيقة التي أجيرتها تلقائيًّا علة من أراد ذلك أو من خلال تراجم المجددين من المجتهدين من

النحويين واللغويين وعلماء الحديث وصناع النقد أن نوع الموهوب أنه «حاد المزاج، مرهف الحس، شديد الحذر، يميل إلى الصراحة» ومن هنا فإنه يُحسَد وقد يُساء فهمه فيكرهه ذوو العلية من القوم إلا من رزق حظًّا من عقل وفطنة وشدة تجربة وقراءة للتاريخ.

في حياة الأمم وحياة الدول خلال تجرم العصور المتطاولة.

ولعدم وجود هذا النوع اليوم ظاهرًا فإن الاكتساب العلمي هو السائد، ولهذا قد يقع الزلل، فيقع من جراء ذلك الاختلاف الذي قد يصل إلى شدة القول كالتجهيل أو الدخول في النيات وهذه سمة هذا الحين.

ولكن لأدلف إلى حقيقة البدل، حديثي عنه في هذا المعجم لأنه قد يُشكل كثيرًا للتشابه بينه وبين العطف

وبينه وبين الاستثناء، وقد لمست هذا في بعض ما يطرح على الساحة علميًّا وثقافيًّا.

ولكي يتضح هذا جليًّا أبين على سبيل الاختصار حال البدل والاختصار قد يؤدي في غالب حالاته إلى فهم المراد، فأقول: إن البدل هو «ما يتبع المراد قبله لكن دون سبب رابط» وهذا مني حتى يتميز البدل عن غيره.

فلا تقل مثلًا: (رأيت خالدًا لكن عَمْرًا) فليس ثمة بدل؛ لأن (لكن) هنا بمعنى بل وهذا إضراب.

وحتى لو كانت لكن ليست كذلك، فلا يصح هذا لأن من شرط البدل عدم وجود الواسطة، ومثل هذا أيضًا لا يصح أن يُقال: (قام العلماء إلا المجتهد) لأن هذا استثناء وإلا أصبحت واسطة.

وشرح هذا يطول لكن في هذا كفاية.

وحتى يتضح أمر البدل فإن بيان أنواعه من الضروري بمكان حقيقٌ به الإيراد.

فأقول: النوع الأول (بدل كل من كل أو الكل).

مثاله: قطعت الشارع (الطريق الشارع الطويل)، ونحو: (قرأت الكتاب الكتاب الجليل).

النوع الثاني: (بدل نزع أو أخذ صفة من الموصوف) ويسمى (بدل الاشتمال) نحو (سرني أحمد عقله).

أو نحو: (أمالني إلى القاضي عدله) وقس على هذين.

النوع الثالث: (بدل بعض من كل والأشمل بدل البعض من الكل)، مثاله ويقاس عليه:

(قرأت الكتاب نصفه) أو (علمت العلم ربعه).

النوع الرابع: (بدل المفارق للمبدل منه ولا يصح المخالف بدل المفارق).

وقال ابن عقيل وغيره: «البدل المباين للمبدل منه».

قلتُ: وهذا سالم من الخلاف وفيه وجاهة نحو: (قرأت الكتاب ذهبًا) المراد ذهب الحكمة والفائدة.

أو نحو: (رأيت رجلًا أسدًا).

وهذا بيّن؛ أعني البدل وأنواعه على واجبة من القول الطويل وإنما ذلك مني من باب التنبيه ليس غير.

وفي تعريف البدل والعطف والاستثناء ما يبين الفرق بينها لكن العقبة لدى البعض هي في مجرى الحديث خلال المحاضرات أو الندوات.

ولعل إمام النحويين من أهل الحديث (الإمام العيني) في كتابه (عمدة القاري) ما يغني عن كل قول من خلال طرحه وشرحه وتراجمه وإعرابه الطويل للمفردات عقب كل نصٍ وحديث، ولم أرَ من ذكره أو استشهد به من العلماء أو الباحثين أو كتاب المقالات في المجلات المحكمة أو في الصحف الجارية عبر الزوايا أو الإطروحات النحوية واللغوية.

الاستشارة العقلية وسياسة الدولة المعاصرة

تقوم الحياة في أساس بنائها على الوعي الضارب في العمق اللاشعوري؛ أعني الموهبة على كل حال كما تقوم على تحديد المراد الذي يسعى إليه الإنسان دون ريب، ولعل من أهم القول في بناء الحياة هو صفاء الذهن والسير على منهاج القسطاس النيّر المبين.

لست أرمي هنا كما لم أرمِ من قبل إلى المثالية كلا، لكنها مطلوبة في حياض مسؤولية الحياة الثقيلة في الدولة المعاصرة.

فالمثالية ممكنة عند معالجة الإدارة ومراقبة الفكر مراقبةً مشوبة بالموادعة ومصادقة النفس لربط زمامها لئلا تطغى هي، فتحتال لتوقع الفكر برباط سبيلها دون شك.

إن المسؤولية كما أنبه كثيرًا كلما ثقلت وكلما كبرت كان على الفكر بجانب العقل، وكان على العقل بجانب الفكر أن يتيقن على سبيل دائم في سياسة الدولة.. أي دولة.

ليس هناك بحسب تجارب الأمم الخالية وأساطير الحكمة والمسؤولية أضر من العجلة وأضر من العودة في القرار بعد إصداره حتى لو كان خطأ؛ لأنه بالإمكان معالجة هذا الشيء بشيء من الأريحيه السياسية وتوزيع التراجع عن القرار على فترات حتى تكتمل الصورة على ما كانت عليه قبل ذلك.

والحياة قصيرة ومن المؤسف أن بعضنا يجعلها معنويًّا أقصر من ذلك.

وليست المشكلة هنا بل وبحسب تجاربي في مجال السياسة القضائية والتحليل النفسي التطبيقي على من يزورني إلا بتكرار الخطأ عينه أكثر من مرة.

ومن هنا قد يغفل المسؤول أي مسؤول عن الأخطاء، فتتكرر تلك الأخطاء لكن بصور مختلفة ناهيك أنه قد لا تتضح الحقيقة لأنه قد لا يريد لاشعوريًّا لا يريد إلا هذا وهذه مشكلة قد تجر صاحبها إلى إيجاد سوء فهم له مع أنه يرى أنه مخلص.

ومع أن أبا جعفر المنصور واسمه (عبدالله) وهو ثاني حكام الخلافة الإسلامية قد زل، قد تجرأ فاحتوى الخصوم، وجعلهم عمّالًا على المدن القريبة منه فقيل له في هذا فقال: عدوٌ ظاهر خير من عدو خفي، أو كما قال.

ومع أنني قد أكون ضد هذه الفكرة لكنها تعطي صورة بيان كل شيء عن كل عدو في أي اتجاه كان مشربه، ولا شك أن قرب العدو أو الذي لا يوافق السياسة يكون خيرًا من بعده إذا كان من ذوي القدرة والرأي بأي صورةٍ من الصور ولا سيما الفكرية، وهذه السياسة لم أزل أوصي بها المسؤولين بحسب كل مسؤول وقدراته التنسيقية وقدراته العقلية حينما يرهبون الاستشارة في معضلةٍ ما وهي صالحة أيضًا طردًا حتى مع الأبناء ذوي الميول المراهقة ما بين سن ١٤ حتى سن ٢٥ بشرط ألا يتنبه الابن أو تتنبه البنت إلى قصد الأب لكن هذه السياسة لا تنفع الأب ولا تنفع الأم إذا كان أحدهم ضعيف الشخصية أو هو يميل إلى كثرة العتاب والصراخ وشدة الملاحظة، إنها تنفع بإذن الله تعالى مع الأب ذي الميول الأريحية واسع البال الذي يتغافل عن كثير من التفاهات التي لا تؤثر.

لست أرى بأسًا في سريان التجارب بين الأمم.

أليس البيت مسؤولية تحكي الآمر والمأمور.

إذًا هذا يكون ساريًا على أوضاع كثيرة تطبيقها يكون على شاكلة التدرج مع حذر التزلف مع الأولاد وحذر المتكسب وحماية الضعيف هذا هو سبيل البيت

سواء كان صغيرًا أو كان كبيرًا بل المدرسة والجامعة بل قل: رئاسة مؤتمر له أهميته القصوى في تقرير مصيرٍ ما.

هذا ديدن الحياة، فما لم يكن هناك ولا أصادق ونزاهةٌ طاهرة المعالم وأمانةٌ تضرب في أعماق القول والفعل دون ضعف ودون غفلة ودون تجاهل ما لم يكن كذلك فقد أرقم على الماء وقد أنفخ في رماد وقد يضيع ويذهب اللبن في حرارة الصيف.

ولهذا قال عمر: «لست بالخبء ولا الخبء يخدعني» وحينما عزل عمرُ خالدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن قيادة الجيوش في الشمال قيل لخالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنها الفتنة قال خالد: كلا، وابن الخطاب حي» وهذه صورة تعني ثقلًا، ولا تعني ثقل خالد ونزاهته وأمانته، وتعني من باب واسع قوة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وموهبته حتى يكون خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشرف العام والمستشار الجليل وقد فعل خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك بقوة القوي وأمانة الأمين وصدق الموالي.

لست أرى من هذا ولست أرى من غيره إلا أن قوة العقل في سياسة الشعور بالمسؤولية ألا يغفل اللاشعور، فتحتال النفس، ويطمئن الخاطر، فلا يجعل التنبه ديدنه.

ولهذا يخسر الأب مثلًا الذي لم يراقب أبناءه مراقبة الحكيم القوي من إذا قال فعل بسياسة الفطنة الداهية بجامع أن يكون الأبناء أسيادًا ولو بعد حين طويل لكن هنا يحسن بالأب ألا تطغى عليه العاطفة، فيترك كبائر الأخطاء في سياسة الحياة طمعًا في صلاح الحال.

هذا نفسه الذي يوقع البيت في شدةٍ من العنت وصعوبة التقويم.

وكم قد رأيت من حالات من مثل هذا كثيرة لأولئك الذين ينشدون التوجيه أو هم ينشدون الرأي وهم يرغبون.

لكن يكون الأسف في تسويف التقويم وهذا وحده شاهد يقوم على أننا أحيانًا نلغي العقل من باب الرحمة والعطف والحنان.

ولهذا لما قبض النبي ﷺ على رجل آذاه قال له ذلك الرجل: «من للصبيان؟» قال ﷺ: «والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول خدعت محمدا مرتين»( ).

هذا مثال قائم لا يزول من نبيّ هذه الأمة ولرسول الثقلين ﷺ لا بد من الحكمة ولا بد من البصيرة ولا بد في سياسة نهضة الأمم من أن تكون العاطفة خادمةً للعقل على مداومته حال لا تتحول ولا تزول في حالات كثيرة على وتيرةٍ واحدة في سابلة من علم مجرب أقول: في علمٍ مجرب مكين.

تدهور الدولة... أين العلاج؟

ليس ثمة من سبيل من الاستفادة من الدول التي كانت خلال تجرم القرون إلا بالاطلاع على الحيثيات تلك التي قامت عليها وغذتها وحافظت عليها كذلك بناهض من اليقظة مستديمة مع صدق التوجه بوعي وشعور بالمسؤولية بكثير من الأمر وقليله.

وإذا كان الدهاء وقوة الشخصية الرزينة الواعية ذات الشفافية الواسعة النظر هي من أهم المسؤولية العملية فإن قراءة سطور الدول والتركيز على مسببات التأثير في العقول بقناعة ووضوح، رؤية ذلك هي زبدة قصدي من فهم قوة الدولة في صفة من صفاتها؛ لأن القوة إنما تأتي من ذلك الوضوح وبصفة خاصة من الثقة بالنفس بالسير على واضح من الأمر بأن الدولة إنما هي منظومة واحدة بين الراعي والرعية؛ وذلك لقطع الطريق على كل مغرض ومشوش همه إنما هو التلاعب بالعقول وعواطف من يفقد حقيقة الواجب عليه الذي يسبب الجهل به تدهور الحال شيئًا فشيئًا.

وهذا أمر جلي جدًّا عند تصوره تصورًا منطقيًّا يتكئ على فهم وعقلية واسعة الإدراك لسائر الأمور في الدولة.

ناهيك أنه ليس من اللازم على كل حال أن يريد أو يسعى ولي الأمر لإرضاء الكل بصفة واحدة وطريقة واحدة وقياس واحد ليس هذا من اللازم، وإشغال الحاكم نفسه بهذا قد يزيد الحساسية فيما هو في غنى عنه كل الغنى.

لكن العمل على الأريحية الواسعة البطان وعدم الركون إلى العجلة في معالجة الأمور والإرضاء لعقول الناس وقلوبهم بصدق النظر هذا حقيق به أن يسد مسدًّا كبيرًا.

وهذا ينمي الولاء بتقدير ورضا.

ولهذا جاء في الصحيح وسنده عراقي مدني، وركز عليه الامام ابن هشام في السيرة وكذا ابن جرير الطبري وخلق سواهما كثير أن النبي ﷺ حين فتح مكة وكان فيها كثير ممن حارب وأذى أنه ﷺ قال لهم وقد اجتمعوا في المسجد الحرام: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[(١)]

مع وجود بعض أهل البيت الذين لم يسلموا حينئذ.

ولهذا فإن بناء العقل للولاء الواعي إنما يأتي بتغافل كبير وتجاهل، وذلك عن القدرة على من ضل أو أساء مع ضرورة تحفيز قوة الموهبة العملية وشدة التوقي حتى من القريب الذي كنت أظنه قريبًا، فتبين بعد لأي أنه ليس كذلك.

ولعلي لا أبعد النجعة، فلعل إبراهام لنكولن هو من قال ما فحواه: «لست أبدًا بواجد الحقد على من أساء إلي أو إلى عملي بل لعلي أقربه وأحتويه وقد يكون هذا خيرًا لي ممن يتقرب للوجاهة».

ومن خلال الدراسات العلمية التي أطالعها دائمًا في سياسات الدول والإدارة العليا فإن المرء هو نفسه من يبرز نفسه بنفسه ما لم يكن له زميل حاقد أو قريب حاسد، وإذا لم يتكسب من عمله أو يستغل غيره لنفسه كذلك.

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (١١٨/٩ رقم١٨٧٣٩)، وفي معرفة السنن والآثار (٢٩٣/١٣ رقم١٨٢٣١)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٠٧/٣ رقم١١٦٣).

هذا أقوله من خلال نظري المكيث لسير الدول وأخبارها صعودًا ونزولًا بحسب معانٍ كثيرة وقفت عليها، وجربتها خلال كثير من الأعمال قضائية وإدارية وعلمية.

ذلك أن من أشك فيه وأكرهه قد يكون ضحية سوء فهم أو أنه كلام جاء عنه من قريب منافس أو زميل مباعد وإلا فإن من سياسات البقاء تقريب الجيد وتوليته إن أمكن مهما قيل عنه أو يقال، وسوف يتبين بصادق وناصح من القول الحق في هذا من سواه.

وهنا قاعدة جليلة قال بها أحمد بن محمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وكذا قال بها علي بن المديني وحرر هذا الذهبي ورمز إليها بن حجر وعرض بها (بتشديد الراء) ابن أبي حاتم هذه القاعدة: «إننا لو رددنا كل صاحب بدعة جاء في السند لذهب غالب الحديث» قلت: وقصدهم البدعة غير المكفرة.

وهذا يدل على حقيقة أن الأمر في نفسه، وأن الثقة بالنفس تدعو إلى بسط هذه الثقة إلا لمن ينشد لذاته مصلحة أو جاهًا أو زلفى، فهذا لعله يكون سيئًا ينخر في أساس وأصل قيام الأمر برمته.

وخلاصة القول فيما يمكن قوله أن يقال: إن الحذر وشدة التوقي المتزن الواعي ودراسة ذات الفكر والرؤى ببسطة من سعة الرؤية وقوة الخلفية استعمال الدهاء المرن وصدق الحدس مع الثقة بالنفس هذا جليل لبقاء الأصل ودوامه وإن ظهر ما ظهر من خدش أو خدوش ليست في حسبان السياسة العليا بذات بال مع ضرورة التنبه إليها.

وهنا أعود على البدء في هذا المعجم لأبين ما موجبه أن أبين من بعض المفردات التي ينص عليها أصل هذا المعجم:

أولًا: الدهاء أصله حذق العمل مع سرعة النباهة وتجديد الحياة.

ثانيًا: وقيل: الدهاء سعة العقل مع التجربة مع عدم الزلل.

ثالثًا: وقيل: الدهاء هو إيقاع العدو بلطف.

رابعًا: وقيل: الدهاء الاقتصاص من العدو بسعة الحيلة مع العدل.

خامسًا: وقيل: الدهاء شدة الفطنة للحوادث.

أقول: والدهاء غالبًا إنما يكون بين الأقارب أو الزملاء، فيكيد بعضهم بعضًا خاصة الرئيس على مرؤوسه، فيقطع الطريق عليه بدهاء ومكر على سبيل الوصاية مثلًا خاصة حال القرابة، وهذا ينكشف أخيرًا خاصة عند العقلاء الذين يدركون أغوار الأمور.

نقد المنهج العلمي لدى العلماء المعاصرين في الدولة الحديثة

ليس يصلح العلم ليتم التجديد والسبق النوعي الاجتهادي المكين بحال ما ما لم يساير هذا بعمق ودراية النقد ذات النقد المقوم للأعمال.

لست أرمي نافلات القول: إنني أريد بقولي هذا دراسة الأعمال العلمية أو عرضها أو قل دراسة الأعمال الثقافية. كلا، ليس هذا ما أريد، ولكن إنما أردت من ذلك النقد نفسه الذي يدفع بعجلة العلم وسواه إلى بناء العقل وتصحيح مسار ورؤية القلب ومعالجة العاطفة أن تزل أو تميل.

ونحن لو سبرنا مسار العلم اليوم من تحقيق أو دراسة أو شرح أو طرح للآراء، ولو سبرنا كذلك الثقافة بوجه عام لوجدنا بعد نظر وتمعنًا وتأصيلًا ما لم يكن بالحسبان أن يكون.

لا جرم لوجدنا سيلًا متدفقًا من النقولات وكثرة الهوامش وتكرار الرأي ولكن بتنوع من الأساليب حاد الذكاء مما يظن معه المطلع أنه يطالع جديدًا، فهو إذًا يستفيد.

إذًا هناك مشكلة اليوم يحتاج إليها العالم كما يحتاج إليها المثقف الذي هو من وجه قريب رديف للعالم، المشكلة هي غياب النقد، وأما وجود دراسة وعرض وتقرير وشرح الأعمال المطروحة فصنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد.

ولهذا بحسب تتبعي وسبري للساحة العلمية والثقافية منذ قرابة مئة عام أو تزيد لم يتم إضافة نوعية غير مسبوقة.

نعم، هناك جرأة في الطرح وهناك كثرة اطلاع وكثرة كتب وهناك تنوع في دور النشر كما أن هناك مناقشات، لكن ليس يتمخض عن هذا شيء.

فلعلك تجد ثلاث رسائل دكتوراه أو ماجستير في علم الحديث مثلًا أو الفقه أو الأصول أو علم الاجتماع أو أساسيات دراسة الأعمال فيها من الآراء والشروحات والمراجع ما فيها، فسوف تجد هناك تشابهًا بينها، وإن اختلفت الموضوعات، لكنك لن تجد إضافة تجديدية.

انظر إلى ساحة الثقافة التي فيها المثقفون يعدون بالمئات ولا سيما كتاب القصة أو الرواية، إنما ذلك آراء وخواطر يتم توظيفها على أساس النقاش والحوار ولكنها تعود أخيرًا إلى حقيقة الخاطرة والمذكرات شاء من شاء، وأراد من أراد أو لم يرد، هذا هو الواقع دون ريب.

فلو أنك تعمقت بعقلية ناقدة إلى ما بين السطور، وكررت القراءة بتجرد وشفافية وعدل فإنك واجد ما ليس يقوم.

والدراسات العلمية الشرعية والبحوث المنتشرة من خلال الكتب والمجلات المحكمة انتشرت انتشارًا واسعًا، ويرجى منها خير، ولكنها ليست على الطريق الذي يريده المطلع عليها الذي ينشد الجديد غير المسبوق.

سوف أذكر شيئًا مهمًّا في هذا السبيل قد تكون سمعته أو قرأته أو نقل إليك لكنه يوحي بعجلة الطرح واختصار ما لا يجب اختصاره خاصة في هذا الحين، وسوف تجد ما أذكره لك على صفة يصعب معها النقولات الجليلة ليكون السامع والمطلع قد شرب ماءً صافيًا، فارتوى فهو في صحة جيدة في حال مستديم وليس يريم.

وإذا كنت أعتب على العلماء اليوم أيًّا كانوا وعلى المثقفين كذلك فإنما قصدت تحرير العقل من التكرار والنقل والاختصار لتحصل مسألة التجديد في جيل وفي أجيال.

فقط سوف أذكر أدلة مدونة ما كان يجب أن تكون لولا العجلة وحب الاختصار، ولنأخذ أمثلة على ذلك مع بعض الشواهد فيما يخص العلم وآثاره المتكئ عليها، ولأجعل هذا متسلسلًا ومرقمًا حتى يتضح سبيل المنهج على قويم من سبيل مبين.

خذ مثلًا هذه الآراء، قال أحدهم:

أولًا: «هذا رأي الجمهور» ثم سكت المتكلم،

فأين الدليل؟

وهل هو صحيح؟

وأي جمهور أراد؟ الفقهاء أم المحدثون أم المفسرون أم سواهم.

ثانيًا: «أصح القولين في المسألة».

ثالثًا: «هذا هو الراجح».

من رجح؟

وأين الدليل؟ وهل هو صحيح؟

رابعًا: «هذا ما قال به الأكثر».

خامسًا: «هذا هو الصحيح فيما يظهر وذكره عامة العلماء».

سادسًا: «لا بأس أن تصلي في بيتك، فالمسألة فيها خلاف».

وهذا السادس استدل صاحبه به بحديث «**صلاة الجماعة تفضل عن صلاة الفذ بسبع وعشرين أو خمس وعشرين درجة**»[(١)].

ومن نافلة القول: إن هذا الحديث قد تم نسخه على وجه واضح بين بحديث: «**ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى بين رجلين من المرض حتى يقام في الصف**»[(٢)]، ونسخه كذلك: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[(٣)]، ومن المعلوم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يترك صلاة الجماعة لا حضرًا ولا سفرًا.

ولا شك أن العقل السليم يوافق النص الصحيح جرت على هذا العقول والأسفار خلال العهود المتطاولة.

ومن هذا الباب بعد هذا الإيجاز بالأمثلة ذكر هذه الآثار التي يتكرر إيرادها عند عامة العلماء وخطباء الجمع وبعض الدعاة ولعل بعض المثقفين يستعرضه، أذكرها لعلها تدعو لقراءة المطولات من كتب الجرح والتعديل وكتب الأحاديث الضعيفة والموضوعة لعل هذا يجدي ويفيد، وإنما هي إشارة مني تدعو العلماء والباحثين والمثقفين إلى شدة التدبر والتوقي في حال الاستشهاد بالآثار.

أذكر الآن ما يأتي من هذه الآثار:

١- إذا رأيتم الهلال فقولوا: «**اللهم، أهله علينا بالأمن والأمان**»[(٤)]... الحديث، هذا رواه الترمذي لكن سنده ضعيف.

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٣١ رقم٦٤٥)، ومسلم (١/٤٥٠ رقم٦٤٩، ٦٥٠).
(٢) أخرجه مسلم (١/٤٥٣ رقم٦٥٤).
(٣) أخرجه البخاري (١/١٢٨-١٢٩ رقم٦٣١).
(٤) أخرجه الترمذي (٥/٥٠٤ رقم٣٤٥١)، وقال: حديث حسن غريب. وصححه ابن حبان (٣/١٧١ رقم٨٨٨)، وتبعه شعيب الأرناؤوط، وكذا الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/٣١٥ رقم١٨١٦)، وقال: لكن الحديث حسن لغيره، بل هو صحيح لكثرة شواهده، التي أشار إليها العقيلي ، لكنها شواهد في الجملة، وإنما يشهد له شهادة تامة حديث ابن عمر.

٢- «**اختلاف أمتي رحمة**»[(١)]، وهذا الأثر يتداوله كثير من الكتاب والأدباء ولعل بعض الدعاة يقع فيه. وهو ضعيف سندًا ومتنًا.

٣- «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[(٢)]، هذا رواه أحمد بن محمد بن حنبل، وهو ضعيف.

٤- «**لو كان الفقر رجلًا لقتلته**»[(٣)]، هذا من كلام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ولم يصح عنه بسند قوي.

٥- **حديث الذباب «أنه مر رجلان يعبدان صنمًا فقيل لأحدهما: قرب، قال: وما أقرب؟، قالوا: ولو ذبابًا، ففعل فتركوه، وقالوا للآخر: قرب، قال: لا، فقتلوه**»[(٤)]، أو كما ورد. وهذا الأثر ضعيف جدًّا لكنه متداول بل وجدت من صححه وليس له سند يقوم عليه.

فكلها كما ترى ضعيفة، وإذا ضعف السند ضعف المتن، ولكن مع قلة القراءة اليوم فقد يأخذ كثير من الناس بها وهم يعملون.

وهذا ليس بحسن في باب سياسة العبادات والمعاملات.

ولقد يؤخذ النووي مثلًا في شرحه لصحيح مسلم، وقد يؤخذ كذلك العيني في شرحه للبخاري، يؤخذ هذان العالمان مثلين على الشرح والبيان مع الدليل ومعالجة مسألة الاختلاف والراجح والمرجوح والصحيح والضعيف، ولا يقال:

---

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة (١٤١/١ رقم٥٧): لا أصل له.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٢٠/٢ رقم٢١٨٠)، وابن ماجه (٦٥٠/١ رقم٢٠١٨)، وضعفه الألباني في إرواء الغليل (١٠٦/٧ رقم٢٠٤٠).

(٣)

(٤) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٥-١٦)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٨/١٢ رقم٣٣٧٠٩)، والبيهقي في الشعب (٤٥٧/٩ رقم٦٩٦٢)، قال الألباني في السلسلة الضعيفة (٧٢١/١٢-٧٢٥ رقم٥٨٢٩): فالإسناد صحيح. وقال أيضًا: فالحديث صحيح موقوفًا على سلمان الفارسي رضي الله عنه.

إن الفتوى مثلًا أو الإجابات تحتاج إلى الاختصار، قد يكون هذا قبل خمسين سنة لكن اليوم يحتاج الناس إلى الشرح ومعالجة الآثار والأقوال والآراء بتأصيل وتقعيد بدليل صحيح وتعليل عقلي سليم،

لقد كنت آخذ من خلال مناقشتي لبعض الرسائل العليا في الدكتوراه والماجستير آخذ على الباحثين كثرة الاستطراد وكثرة التهميش أسفل الصفحات، كذلك آخذ عليهم عدم البحث بأسلوب علمي رصين إنما هو الإنشاء، ولقد استفاد كثير منهم خاصة بعد أخذ الدرجة والإذن بطباعة الرسالة.

ولا يزال الحال تحتاج إلى أن يخرج في هذا الحين تجديد يتحرى التأصيل والتقعيد والاتكاء على قاعدة صلبة من علم رصين ودليل سليم سندًا ومتنًا.

قد يكون في كلامي النقدي هذا شيء من القسوة لكن الموجب لهذا هو ما أراه من كثرة الأطروحات التي تزفها لنا دور النشر والمراكز العلمية والهيئات العلمية، وكذلك دور النشر الثقافية التي تحتاج إلى التأني وسعة البال حتى يسلم العلم من الخطاب المباشر، ذلك الخطاب العجول، وحتى تسلم الثقافة خاصة الرواية والقصة من طرح الآراء على أنها رواية أو قصة.

لست أشك أن أحدًا لا يخالجه شعور أني صادق في هذا وإلا لتركت هذا إلى غيره، لكن لعل في كلامي هذا ما يوجب إعادة النظر في المؤلفات وبعض الرسائل العلمية وبعض الإجابات المدونة والمسجلة لعله تمخض منها إعادة النظر على أساس التجديد النوعي بإعادة ما تم طرحه لغربلته ليظهر جديدًا مفيدًا في آن، لعل المطلع عليه فيما بعد يجد شيئًا لم يجده من قبل.

قوة الدولة وضعفها أيام الأزمات

تتسم الدولة القوية بمعرفة خصائصها العاقلة تلك التي تتصف بالدهاء المرن، فلا يستفزها مستفز أو يحركها مناوش ما لمعرفة بعد عمقها في سياسة الأخذ والرد.

بل ان اتسامها بالقوة إنما يأتي بكثرة الصمت والاستفادة حتى من استفزاز العدو، فهذا قد يكون له قيمة قوية لمعرفة خلل ما ولو كان صغيرًا.

وتقتضي ضرورة القوة بضرورة التماسك الواعي حتى حيال أقرب الناس إلى أن يتبين لها وجهات النظر.

وإذا كان فاقد الشيء لا يعطيه فإن كثيرًا من النقد وتهويل الخطأ يدل في سياسة الدولة على أن من يفعل ذلك يفقد أشياء كثيرة، ووقف على شيء ليس بذي بال، فيستدل بهذا على ضعفه في نقده ووجهات نظره وأنه بعيد عن السياق ونسق في سياسة الدولة فيما تأخذ وتذر.

لكن لا يحسن إغفال الملاحظات مهما كانت ضعيفة أو حتى لا أصل لها بل يجب ملاحظة حيثياتها تلك التي جعلت من ذاك يلاحظ ويقرر، فربّ شيء ما قد خفي على المنظر (بتشديد وكسر الظاء) هو من الضعف بحيث يجب تلافيه، ولو كان هامشيًّا في نسق السياسة العملي والنظري ومتانة عودها وتقوية جذورها ونظر المستقبل بإذن الله تعالى بعين بعيدة وعميقة وذات شفافية تزداد مع الأيام

متانةً وجسارة وتجربة يحيلها إلى الدوام بإذن الله تعالى، وأحسب أن هتلر هو الذي قال: «عاطفتي وحبي لنفسي طغيا على روية عقلي».

ولست أبعد السبيل إن لم أكن قريبًا أن المستعصم آخر حكام الدولة العباسية إبان الخلافة لعله هو الذي قال: «الضعف هو عدم إلقاء البال على كل شيء يقال وإنما القوة احتواء القوي وإن كان لا يريدنا».

قلت: وإذا جعلنا كلام المستعصم على المحك من خلال التحليل السياسي والتحليل الإداري في ضبط الأمور وتقوية الحال، فإن قوله يقرب من الحقيقة قاب قوسين أو أدنى ذلك أن هذا النوع من الناس قد نكون هولنا أمره بينما تركناه مثلًا بسبب طبيعته ونفسيته، وقد يكون بسبب وشاية عند سؤال قريب له او زميل وإلا فإن كلام المستعصم يعضده التاريخ من خلال سياسة الرجال إبان العصور المتعاقبة على هذه الأرض.

وإذا فهم هذا فإن زيادة الحساسية قد تنعكس طردًا إلا في حالات أقول: ليست موجودة على المحك السياسي الرزين.

ومن هذا الباب فإن كلام هتلر الذي لعله قاله جيد في بابه؛ لأن طغيان العاطفة قد يلغي نظرة العقل، ويجر هذا دون شك إلى الاسترخاء وإذا ترك الحبل على الغارب تفاقم شر قد يصعب علاجه ما لم تكن المبادرة على أساس الشفافية وموهبة النظر مع القدرات الزائدة النوعية لمعالجة الأمور بواسع من العقل مكين أقول: ومتين.

وصحيح البخاري وصحيح مسلم ليس فيهما ما يحكم بضعفه من باب العموم وكل ما ورد فيهما صحيح على ما شرطاه، ويبقى قول علماء الجرح والتعديل كالإمام أبي زرعة وأبي حاتم الرازيين وعبدالرحمن بن مهدي وسعيد بن منصور المروزي وغيرهم لكن لعل الصواب هو أنه قد حكم على صحة ما جاء فيهما؛ لأنهما سارا على شروط تخصهما والله تعالى أعلم.

أصل الخطأ عند العلماء المعاصرين اليوم

هناك في علم النحو أساسيات قد تغيب حتى على ذوي التخصص المكين، قد يكون بسبب العجلة، وقد يكون بسبب الحرص، وقد يكون بسبب من باب تداخل الأشباه بين حال وحال من فعل أو مفعول أو حرف وحرف، كلاهما له معنى غير المعنى لذلك الحرف.

وستجد في أثناء الندوات العلمية أو الثقافية أو الندوات الوعظية، ستجد مثل هذا إذا تدبرت ما تسمع أو تأملت ما تقرأ.

وهذا ينبئ أول ما ينبئ إلى عدم الاهتمام وشدة الحرص الجيد على فهم المراد من النسق المطروح.

ولسوف أورد مثلًا لعله يغني عن كل مثل، وأنت إذا تعمقت في هذا أصبح لديك قدرة ذاتية على الوقوع على الخطأ حتى ولو كان عميقًا، فخذ مثلًا:

أ- المفعول فيه: هو يشبه المفعول له، وإن وقع اختلاف يسير إلا أن المفعول فيه به نوع غموض قد لا يقف عليه إلا القلة، لكن في مثل هذا ولعلاقة الظرف بما أحرره هنا فإن الظرف مطلقًا هو اسم في محل نصب دائمًا قد دل على مكان أو دل على زمان محتويًا من حيث المعنى حرف (في).

وهذا نحو: «سافرت تجاه مكة يومًا» وقس عليه، فالمراد والله تعالى أعلم «سافرت في تجاه مكة يوما».

ب- المفعول له: وأصل هذا المفعول أنه المصدر المدرك منه علة (والمدرك) إنما هو بفتح (الراء) على البناء للمفعول.

وهذا مثاله: «قل صدقًا» وقس عليه، ونلاحظ أن كلمة (صدقًا) قد نصبت وهذه حالها طردًا وهي: (مصدر) لكنها مفعول له، فتنبه.

ومرادي من قولي: «المدرك منه علة» أن المراد هو: «قل رجاء الثواب الصدق».

وقد توسع في هذا المفعول من دلالة المعنى الدالة على المراد ويطلق عليه: (المفعول لأجله) وهذا وجيه إذا تأملت المثال.

ولكن لهذا المفعول أنواع وبسبب عدم الوقوف على هذه الأنواع من قبل العلماء والباحثين فإن الخطأ يقع -دون قصد- لكن هذا الخطأ ينخلط أمرًا بأمر ومفعولًا بمفعول آخر، وهذه في الحقيقة يضيع معها هذا العلم المهم.

ولأطرح على سبيل الاختصار هذه الأنواع:

١- أن يخلو مما يصرف عنه لئلا يقع هنا الأشباه، فيكون في حال جر.

مثاله: «قربت كتابي للقراءة» وهناك من جعل (اللام) تعليلية، فألزم حذفها، فيكون المثال: «قربت كتابي لقراءة».

٢- أن يكون خاليًا من الألف واللام وهذا النوع يكون أهم نوع، مثاله:

«أمرت طالبي تعليمًا» وقس على هذا المثال سواه.

٣- أن يكون في حال إضافة دائمة، وهذا شرطه مثاله: «أقرأت الكاتب لتعليمه».

٤- لا بد أن يوجد فيه علة مفهومة لما سبق مثاله: «تكلم حقًا» أريد من أجل الحق، وهذا واضح.

ج- المفعول معه: وهذا النوع يقع فيه إشكال؛ لأنه يحتاج إلى قوة فهم ولا سيما و(علوم الآلة) من العلوم العقلية التي تحتاج إلى قوة إدراك وسعة نطاق.

وسيتضح فيما بعد وعند التوسع في أثناء طباعة (الجزء ١٠ و١١ من هذا المعجم) بحول الله تعالى، هنا سيتبين هذا الأمر من خلال التعريف، وهذا المفعول هو:

(اسم منصوب بالمصاحبة) ومعنى ذلك أنه لا بد أن تتقدم عليه (الواو) (واو المعية) «هكذا، فيظهر من خلال المعنى المفعول، وهذا من جمال وعمق اللغة والنحو مثاله: «قرأت والعالم» أو «نظرت والعاقل» أريد هنا «قرأت مع العالم» و«نظرت مع العاقل»، نعم، في هذا كما أسلفت إشكال لكنه يزول بدلالة المعنى وتذوق المثال.

وهذا المفعول له أنواع ليس هنا محالّ بيانها وشرحها وأمثلتها لكنها تفهم من خلال المثالين المضروبين ولا جرم.

إلا أن الذي أحب بيانه لئلا يفوتني هذا وهو وجه لازم لي بيانه أن (الواو) لها معنى العطف، ولها معنى التعليل لكن هكذا على السماع إلا أن الذي يحسن ذكره هنا أن النصب بعد الواو قال به كثيرون، فينصب ما بعد الواو مفعولًا معه.

قلت: هذا ظاهرًا لمن تأمله.

أصول كتابة المعاجم وفقه الدلالة... (١)

يحسب كثير من الناس، ولا سيما الباحثين من غير ذوي الاختصاص، أنه بمجرد حب العلم في أي فرع من فروعه فإنه يمكن الإتيان عليه، أو الإتيان على جزء منه.

ويحسب مثلهم يضارعهم أنه بمجرد حب صفة من صفات عالم من العلماء أن يكون مثله إذا سار على منهاجه، أو على صورة من صور منهجه.

وهذا وذاك قد جرَّا خلال الدهور مشكلة التطفل على العلم، وقد يجرُّ هذا لحسد العالم وحسد المثقف وحسد الناقد، لكن بصورة من الصور المتعددة.

وهو بحسب تتبعي قاد كثيرًا من هذا الصنف وذاك إلى التعالم، وهو قد سبب السوء على العلم في حالة من حالته، وفي صورة من صوره، ما في ذلك شك.

والذي أقطع به هو أن العلم في أصله موهبة من المواهب، وقدرات زائدة، لا يستطيع كل أحد أن يأتي هذا إلا إذا أوتي أي شيء، ولو كان قليلًا من الموهبة والاستعداد النفسي لعلم من العلوم ولا بد.

من أجل ذلك، فإن معرفة علم المعاجم ومعرفة دلالة الأحكام أمر لا بد منه، وهو على هذا الطريق المستقيم الذي أدركه التاريخ خلال القرون عن كبار العلماء في مجالات عدة، بقيت آثارهم إلى هذا الحين، فمن ذلك على سبيل المثال ما يأتي:

١- الإحاطة بأصول العلم المهمة.

٢- الإحاطة بمعرفة دلالات الألفاظ على المعاني.

٣- شدة الحذر والتوقي من التعالم أو حب العلم دون موهبة ولو بقدر قليل.

٤- التأني وسعة البال على سبيل مكين وطويل.

٥- الإحاطة بمعرفة وفهم دلالات الألفاظ على المعاني، سواء الأمكنة أو الأزمنة أو دلالة الآثار على الأحكام، ولا سيما فقه النوازل، تلك التي تحتاج إلى عقل ضخم ونفس طويل وسعة بال مكينة.

٦- فهم وإدراك كل لفظ بحسب ما يدل عليه مع ضرورة فهم ما يحيط بهذا من خصوص وعموم.

٧- سعة الاطلاع على ما كُتب في المجال الذي ينشد فيه العالم أو الباحث الكتابة فيه، لكن بنفس طويل مع شدة التحري أن يكون ما يكتبه أو يبحثه إنما يكون على سبيل التجديد الإضافي دون معاندة أو الإصرار على الرأي الواحد.

٨- شدة الاستشارة لكبار العلماء من ذوي الاختصاص الدقيق الذين عُرفت عنهم الموهبة والقدرات الفذة في علم من العلوم، بصرف النظر عن الشهرة وكثرة الكتب؛ فإن هذا وذاك لا يقوم بأن يعطي هذا صفة العالم لمن تمت شهرته أو كثرت كتبه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

٩- عمق النظر وسعة البال على المطروح فيما يتم دراسته وتحليله مع التحفُّظ بعدم الذم للآخر، وعدم تجهيل الطرف الثاني.

١٠- محاولة حسن الخلق مع المعارض حتى ولو كان ذلك المعارض على أشد شيء من العجلة.

ولهذا نجد من يجهل ابن مالك أو ابن منظور أو البخاري مثلًا أو القرافي أو ابن فرحون أو الأمودي، مع أن هذا المسكين لو عاش سنين عددًا ما استطاع أن يحذو حذو واحد منهم بشروى نقير.

وليس هذا مني إقفالًا للعقل أو سدًّا لباب النظر لكن الذي رأيته ورآه غيري من المختصين في أساسيات النقد وأصول التراجم وأصول البحوث والموهبة هو ما يدعوني إلى القول بمثل هذا.

ولا عليك إلا أن تطالع اليوم بعض ما يكتب في الصحف من آراء وأطروحات عن بعض ما كتبه ثلة من العلماء؛ لتجد التعالي والثقة الزائدة التي لعلها سبب، أظهرت أن الخلل الفهمي هو ما دفع هذا وذاك إلى الاعتقاد أنه يستطيع أن ينتقد أمثال أولئك على حال من الحالات أو صفة من الصفات.

ولعل دليلي على هذا أن التجديد السبقي منذ قرابة ٣٠٠ عام لم يتكرر إلى هذا الحين بسبب ما ذكرت، ولا يجوز أن نجعل شهرة العالم أو الباحث أو المحقق وكثرة آرائه وكتبه وحضوره أنه أضاف جديدًا نوعيًّا على الأقل.

ولعل قلة القراءة اليوم تجعل من البعض إمامًا وناقدًا ومثقفًا يُشار إليه بالبنان.

وهذا خلل دون ريب في العقلية المعاصرة.

وهذا يجعل العلم في هذا الحين في مكانه لا يريم، ويقطع السبيل ألا يمكن التجديد في أول المعاجم، تلك التي دونها العلماء الموهوبون، ومثله أعني مثل ذلك أصول فقه الأحكام وإنزال النص على الواقعة والمزج بين هذا وذاك.

وإن شئت فاقرأ مقدمة مسلم في صحيحه، أو إن شئت فاقرأ كتاب الطب أو القضاء في صحيح البخاري أو إن شئت فاقرأ سياسات الإدارة العليا فيما كتبه ابن تيمية في (الفتاوى).

أو إن شئت فاقرأ ما دونه الشاطبي أو ابن رجب، أو إن شئت فانظر ما دونه لابن هشام، وسواهم خلق كثير؛ لتجد أني لا أبعد النجعة، وأن مثل قولي لعله يكون محل درس ونظر في الهيئات والمجامع العلمية؛ لعل ما أقوله يكون سببًا في التجديد الإضافي على حال؛ لعلها تسهم في تحفيز الموهبة، وبعث فهم أصول العلم وأساسياته في مثل هذا الحين العجيب.

أصول كتابة المعاجم وفقه الدلالة... (٢)

سبق القول على منوال سلف من قواعد وأصول، كان لا بد لي من تدوينها؛ علَّ ذلك يجدي في حين العلم اللغوي والعلم العام وبسط الثقافة المؤصلة، كل ذلك يحتاج إلى بيان يسير عليه من ينهج النهج، ويسير المسار؛ فيغذي بهذا عقل المطلع والمتابع والمفيد والمستفيد، كل ذلك في آن، أو لعله في آن دون آن، لكن الحق أقول: إن مثل هذا يجب أن يدون ليعاد إليه في كل حين.

وكنت قد أسلفت القول في ذكر قواعد وأصول تحوم حول المعاجم وفقه الدلالة، دلالة النص على الواقعة من حيث اللغة وبسط النظر في دلالة النص على الأحكام.

وأضيف اليوم من مثل ذلك ما يأتي:

١- لا يستغنى في بحث الكلمة للوصول إلى معناها على معجم دون معجم، أو سفر دون سفر؛ فقد رأيت النووي والكرماني وابن حجر وابن رجب جاؤوا بمعانٍ جليلة، لم يتطرق إليها الفيروزآبادي ولا ابن منظور ولا الجوهري في الصحاح، وأردت في القسم الأول هذا أنه لا يكتفى بالمعاجم اللغوية بل لا بد من كتب الآثار التي دونت المفردات على نسق مختلف، تجذرت معه معاني اللغة ودلالة النحو وسلامة البلاغة.

٢- لا بد لمعرفة معاني المفردات؛ أي مفردات من التأني وطول البال وسعة النطاق، خاصة لكبار الباحثين والمحققين؛ فقد رأيت كثيرًا من كبار العلماء

واللغويين وكثيرًا من المثقفين زلت بهم القدم؛ لأنهم حققوا، وأجادوا فيما ظهر لهم، لكنهم لما تركوا كتب الآثار تلك التي أشارت إلى المعاني المرادة، لما تركوا ذلك كان عليهم نصيب موفور من قوة الملاحظة أنهم زلوا هنا.

٣- لا بد لأهل العلم واللغة والثقافة ومن يكتب في سياسة أصول المصطلحات اللفظية للوصول إلى المعاني الصحيحة عدم توكيل من يكتب له أو يحقق له أو يبحث عنه؛ فيجعل ذلك له وإنما له الاسم فقط.

وهذا وقع لي منه شيء كثير، نقل لي أن هذا قد حصل في بعض المواقع التي قد ألقيت اللوم على كثيرٍ منهم فيها حينما بحثت وتحققت من ذلك على ناهج من دليل سليم.

٤- لعل من حيل النفس أن العاطفة تدغدغ العقل، وتحيط به من الجوانب كافة؛ لكي تعميه عن الصحيح وعن الصواب؛ فتكون العاطفة هي القائدة للعقل والمسيرة له، كمن اصطاد أسدًا غضنفرًا فساسه، فهو ينقاد معه، وينقاد إليه، والأسد أشبه ما يكون بالحمل الصغير، لا يبدي ولا يعيد.

وإذا كان العقل الحر الذي قيد لكي لا يعلم شيئًا وإنما العلم كله للعاطفة والقلب معًا؛ فإن ذلك يقود العالم والباحث إلى العجلة في الوصول إلى الحكم في التقرير والاستنتاج، كما يقود المثقف واللغوي والناقد إلى شيء رأيته كثيرًا، وهو (التعالم) وإذا كان الأمر كذلك فإن مثل هذا لا يقبل النقد أو التوجيه شروى نقير؛ ذلك أن العاطفة تلك التي احتالت على العقل وغلفته بالغش الذكي والإحاطة الذكية لا تقبل الإهانة، وإن كانت الإهانة هي الحق كل الحق في المسار الصحيح في سياسة اللغة والعلم على وجه مطلق.

وقد رأيت كثيرًا من القوم اليوم هذه صفتهم، سواء في المؤتمرات أو الندوات أو الإشراف على الرسائل العليا أو المجامع العلمية أو اللغوية، وهذا يدعوني إلى القول: إنه لا بد من تحرير العقل من العاطفة وتحرير العقل من القلب بقوة

النزاهة والوضوح، وهذا دون شك سوف يقود كثيرًا من العلماء واللغويين إلى التجديد النوعي دون شك.

وحسبك أن تقرأ للقرافي أو ابن قتيبة أو ابن حجر، أو تقرأ لأبي حسن الأشعري، أو تقرأ لسحنون، أو تقرأ عن مثل ذلك للأصمعي أو خليفة بن خياط أو يحيى بن سعيد القطان، أو تقرأ على سبيل المثال لطرح الترمذي في (العلل الكبرى) أو (الصغرى)، أو تقرأ للطبراني (المعجم الأوسط) الذي جمع فيه العقل والنقل مع سبق جيد، كانت العاطفة فيه وفي الكتب الأخرى التي ذكرتها متأخرة عن العقل شوطًا بعيدًا، وكذلك كان القلب.

٥- وقد رأيت في بعض المؤتمرات والندوات العلمية التي شاركت فيها أو ترأستها أن مثل هذه الكتب وهذه الأسماء التي أوردتها الآن لم أقرأ شيئًا منها عند بسط البحث في تحرير مسائل اللغة والعلم وفقه المستجدات.

وهذا يدعوني إلى القول: إنه لا بد من بناء العقول في الجامعات مثل مراحل الثانوية في أقرب قريب من وقت لا بد أن يكون أقرب ما يكون.

٦- لا بد في نظري تأصيل مسائل المعاجم ودلالة الأحكام من النص، لا بد من ترك المجاملة مهما كان الأمر؛ وذلك أن المجاملة إذا دخلت في الطرح البحثي أيًّا كان فمعنى هذا أن العاطفة (أصبحت حرامية ذكية)، وأصبحت العاطفة مع القلب ينخران العقل المغيب، أقول: وهذه مشكلة.

٧- ولعلي أجعل هذا الجزء الثاني من هذا المعجم في هذا الملحق الثقافي المرموق، لعلي أجعله هدية لكبار العلماء والمثقفين وأهل النقد والكتابة المُحكمة، سواء في صحيفة أو مجلة فيعودون إليه؛ فيأخذون منه ما ينفع مقتنعين به، ويدعون ما لم يدخل في البال، مع ضرورة مراجعة الثاني، والله المستعان.

الهيئات العلمية والمجامع اللغوية في العصر الحديث

صعب القول كثيرًا على المهتمين بالدراسات العقلية العلمية ذات الطابع الموهوب، يصعب كثيرًا الوقوف على سر تمكن سيبويه مثلًا أو البخاري أو منصور بن المعتمر أو ابن قتيبة من الوصول إلى التجديد وكمية السبق الجيد، لكنهم يكادون يذهبون إلى القول: إنهم يملكون طاقة حرة لا شعورية نابهة، كما يملكون طاقة دائمة نحو ماذا يريدون؟ وماذا يريد الناس منهم؟

وهذا وذاك محفزان نحو الاجتهاد العقلي؛ ليتجاوزا العمر الزمني؛ ليكون لهم ما أراد الله لهم أن يكون لخير الناس على أيديهم من نبش أبكار الآثار، وتحليل مراد النص؛ ليقع منهم الاجتهاد النوعي المطلق والاجتهاد النوعي المقيد، سيان هذا وذاك؛ كلاهما فيه خير، والخير المديد.

والذين أشرت إليهم (الثلاثة) إنما هم نموذج من كثير، مروا خلال العهود في أحايين سلفت إن صفا الذهن ودقت الملاحظة وعمق الفهم السليم، وإن خلا القلب من الضعف والتردد، وخلت النية من حب الذات، وإن حسن الخلق مع جودة التلقي والأناة الواعية والصبر المكيث. كل ذلك كان أولئك على حال مما ذكرت عنهم.

ذلك أنني أمكث مليًّا بين قراءة وقراءة في أساسيات نباهة الفهم وقوة الملاحظة وسرعة البديهة الصائبة، فكنت من خلال تحليلي المتأني أجد أنهم

قد بلغوا حالًا يمكن أن تتكرر خلال العصور إذا وُجد الجو، وصفت النية عند من يريد الحذو حذوهم، لا على سبيل التقليد، لكن على أساس إضافات يفعلها المرء اليوم كما فعل من كان قبلهم؛ فأضاف نوعًا لم يكن من قبل.

وعلم اللغة وعلم أصول الحياة العملية كل ذلك إنما هو أصل للعلماء، علماء اللغة والحديث والنحو والثقافة على وجه مطلق. تلك الثقافة المبنية على التجرد المكين.

ولست بمتعدٍّ عن الحق إذا بيّنت شيئًا ذا بال عن نتائج كنت آخذها من كل ترجمة تكون بين يدي، خاصة تراجم المجددين، لكن تمهل بعد تدبر ما تقرؤه. تمهل حتى يستقر لديك المراد، كل المراد من هذه الأسس التي لعلها تسهم فيما تصبو المجامع اللغوية والهيئات العلمية ومراكز البحث فيما تصبو إليه، في حين يريد النابهون فيه -لعلهم أو بعضهم- أن يسبقوا إلى رأي جديد أو نظر جديد لم يكن لهذا الرأي أو لذلك النظر سابق من قول.

وعلى هذا الأساس أبين ما يأتي:أولًا: حينما يراد تحرير مسألة علمية أو لغوية أو مسألة نقدية لتقويم عمل ما فإنه يقطع الوقت، ولا بد بسعة البال؛ فينظر ما يدور كافة حول هذه المسألة من آراء واجتهادات واستشهادات، ثم هو يعمل عقله في بذل رأي محرر جديد.

ثانيًا: هنا لا يحسن أن يخطئ أحد غيره فيما ذهب إليه ذلك الغير، لكنه يقدر له سبقه إلى هذه المسألة، ويزيد عليها حتى لعله يتجاوزها بسابقة رأي أو نظر سديد.

ثالثًا: الحق وأنت تقرأ لمن سلف من النابهين، وتطالع مرارًا ما كتبه كثير منهم، تجد تجاوزهم عن السطو وكثرة الهوامش وتكرار النقل؛ إذ يرون هذا وصمة عار وإلغاء للعقل السليم.

رابعًا: كذلك الحق أقول: إنك تقدر لهم بركة العمر مع طول المصنفات التي قاموا بها، وليس كثرة مصنفات الواحد منهم هي ما يلفت النظر لكن ما يلفته حقًّا بعد دراسات أساسية نفسية وعقلية وعلمية، ما يلفت النظر هو عدم التكرار وترك الاستطراد ونبذ إنشاء الكتابة إنشاء... إنما هو رسوخ العبارات القوية، وجلال المعنى الثقيل، وقوة الاستشهاد الصحيح من مصدره الصحيح، ثم يأتي بعد ذلك طرح الرأي الذي لم يكن من قبل.

خامسًا: أقول: تظن وأنت تطالع ما كتبه القوم خلال القرون الثاني إلى السابع من الهجرة المباركة... تظن أن الواحد منهم يخال نفسه أنه هو السيد المجدد فيما يدونه ويعالجه، لكن ليس كذلك، بل هو يبذل الرأي، ويطرح النظر، ويجعل الباب مفتوحًا؛ فلعله أخطأ، ولعل عقلًا أوسع من عقله يجلب ما لم يخطر له على بال. وهذه واحدة كبيرة وقفت عليها، تدل على سمو الخلق وصلاح المقصد.

سادسًا: في أساسيات علم اللغة عند الكسائي أو سيبويه أو عند أبي علي الفاسي أو عند الفراء أو عند ابن جني تجد شدة التحري عند بذل الاجتهاد اللغوي أو الاجتهاد النحوي حينما يريد الاستشهاد بنص أو ببيت شعر أو حكمة أو مثل، أو عند ذكر لهجة قوم.

وقد جرهم هذا الاجتهاد العقلي العميق إلى الوصول إلى حقيقة الإضافات الحسنة؛ ولهذا حرروا اللغة، وحرروا النحو من قيد النقل وتكرار القول.

وإذا كان قولي هذا في هذا المعجم يحتاج إلى الاستشهاد فطالع -على سبيل المثال- بصدر رحب ما كتبه ابن عساكر في (تاريخ دمشق)، أو ما حرره ابن عقيل في سياسته اللغوية النحوية في شرحه (الألفية) لابن مالك.

وهذا تجده عند السيرافي في شرحه كتاب سيبويه، ولعلك تجد بالغ الموهبة عند ابن قتيبة في كتابه (أدب الكاتب)، أو كتابه الآخر (عيون الأخبار).

ولعلي لا أبالغ في القول إذا نظرت إلى أبي الحسن الأشعري في كتابيه (مقالات الإسلاميين) و(الإبانة عن أصول الديانة).

وهذا ما سلكه ابن تيمية في كتابه (درء تعارض العقل والنقل)، وتجد هذا عند ابن قيم الجوزية في كتابه (طريق الهجرتين).

لا جرم أنني إبان الطفولة الباكرة كنت أظن الواحد من هؤلاء مجمعًا لغويًّا وحده، أو أنه مجمع علمي وحده، أو أنه مجمع ثقافي بمفرده، لكن بعد أن شببت عن الطوق أدركت ما دونت بعضه هنا؛ فلعله يفتح المجال، أو لعله ينبش الإضافات من جديد.

الموهبة القضائية... أين هي؟

١- الموهبة... هكذا مصدر من المصادر وجمع ذلك مواهب، والموهبة على أصلها (خُماسي) التركيب (موهبة).

٢- على وزن (مفعلة).

٣- وموهبة عطية... وإعطاء منحة، ومن لدن (الرزاق ذو القوة المتين) نعمة، وهبة ومنَّة بكسر (الميم).

٤- وهبهُ: أعطاه وملَّكة (بتشديد اللام) ولا يقال: (منّ عليه) (بتشديد النون).

٥- والهبة: العطية.

٦- والموهبة: الإعطاء.

٧- ولا يقال لأحد ما: (موهبًا) إلا إذا كان كذلك فجدَّد وأضاف شيئًا لم يُسبق إليه.

٨- و(القاضي) في الأصل لا يصلح إلا كذلك، فلا تنفع قوة الشخصية ولا سعة العلوم ولا الحرص.

من هذا أقول ما لعله ينفع ويفيد.

من صعوبة الحكم بين اثنين أو أقل ثلاثة أو ما يكون أكثر من ذلك من صعوبة الحكم عدم استيفاء النظر في ذات القضية لا في ذات (المدعي) أو المدعى عليه.

فإنَ محط القول فيما يمكنني قوله في ذات السياق أن أصل حال الحكم وسداده وكماله، إنما يكمن كثيرًا في (الموهبة) والقدرات الفذة في تحرير حقيقة الدعوى ونظرها بصرف النظر عن (المدعي والمدعى عليه) ذلك أن بعض من له الحق قد لا يحسن التعبير فيما له من الحق، فلا يحسن التعبير في بيان ما له من الحق، وبسبب هذا قد يسقط الحق عليه لا له، وتحتاج هذه المسألة إلى بسطٍ مع طول تأملٍ مكين ولا بد؛ لأن عدم إيصال الحقيقه بأدلتها وتعليلها وأدواتها إذا كان بسبب: الرهبة: أو التردد أو عدم إحسان التعبير وطرق الطرح البياني لما له من الحق يجر إلى تعالي الطرف الآخر، فيظن ناظر القضية أن ذلك الطرف ليس له حق أو أنه يتردد في بذله له؛ لصلافة وجرأة الطرف الآخر ومعرفته بأصول النظر دون حقيقة ذات القضية، فالزوج(العنيف) مثلًا قد يكون وحيدًا أو مريضًا أو مهددًا بصورة من الصور أو يكون أهل الزوجة قد استعدوا عليه بشخصيتهم أو كبيرهم، فيما لم يفطن (ناظر القضية).

ويسأل من هنا وهناك ويتحقق ويدقق، فما لم يكن كذلك فإن الزوج هنا يقع فريسة، ولهذا كانت: الطمأنينة: وسعة البال وتقليب النظر والاستشارة من لوازم (الحكم) ما في ذلك شك.

وكثيرًا ما وقع لدي في بعض الحالات أن الأمر قد تطلب طول النظر خاصةً اذا راودني شك في الدعوى المقامة عليه الدعوى، فهو لا يحسن التعبير أو يرتجف مترددًا وخوفًا من هنا كنت أزدادُ اطلاعًا ونظرًا، ويحدوني الأمل العريض أن أستشير، فكنت أفعل ذلك دومًا وإلى اليوم، فإنني آمل هذا المنهج لغيري.

وقد ينفع ما سرت عليه غيري، فإنني من خلال نظري لكثير من (القضايا) الجنائية الكبيرة والمتوسطة خاصة بعض الحالات التي أشك فيها أنظر حال الواقف أمامي بعد تفحص ودراسة لنظراته وحركاته وإشاراته.

فكنت أُقَسمُ حال: الجاني والجناية إلى ثلاثة أقسام:

أ- المرض النفسي قبل الجناية.

ب- المرض النفسي في أثناء الجناية.

ج- المرض النفسي بعد حصول الجناية.

وقد أفاد هذا كثيرًا في تصور وتحديد الجناية ونوعها وصفتها، وحال الجاني كذلك ما سبب كذلك قلة (الجنايات) وعدم إسقاط شيءٍ أو أشياء على شخصٍ وهو منها براء، أو هو منها في زاوية ضعيفة.

مسؤولية كبار العلماء والمثقفين إلى أين في الدولة؟

تعتمد الذاكرة اللغوية -بعد توفيق الله جَلَّوَعَلَا- أول ما تعتمد عليه على صفاء الذهن وصفاء الفهم، وذلك في مراد دلالات الألفاظ على المعاني على استعداد في التلقي كذلك لمعرفة تنزيل الحكم على الواقعة من خلال فهم الدليل والتعليل.

من أجل هذا نشأت المعاجم اللغوية والمعاجم العلمية عبر أحايين مختلفة.

وإذا كانت هذه المعاجم تفسر معاني مفردات فإنها إنما تفعل ذلك لسبق الفهم لدى المصنف على فهم التفسير.

وليس هذا -بحسب نظري- بخاضع للاجتهاد على حال ما لم يكن المعنى متعددًا؛ فهنا قد يخضع لبذل الرأي، ولكن بشدة توق وصدق حدس متين مع ما يرادف هذا من الشواهد والاعتبارات تلك الشواهد وتلك الاعتبارات من الحكمة والأمثال التي وردت في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، أو أنها قد وردت في الشعر العربي قبل الإسلام أو بعده أو في صدره.

ولهذا أسس الإمام العيني صاحب (عمدة القاري) شارح صحيح البخاري. أسس لمعانٍ كثيرة وردت في هذا السفر الجليل، وفعل هذا قبله الإمام ابن حجر في فتح الباري،

وكلاهما -بحسب تتبعي- سارا على منهج لغوي ونحوي ثقيل، ودلالات شرعية على منهاج النووي، أو يقرب من ذلك شارح (صحيح مسلم)، وهو أقدم من الاثنين.

وأحسب أنني هنا لا أبعد عن الصواب، بل لعلي أقوله: إن كثيرًا من دارسي اللغة وجل المؤلفين والباحثين المعاصرين في النحو واللغة ومسائل العلم الاجتهادية وقضايا دلالات الألفاظ على المعاني وضبط أسماء تقرب من ٢٥٠٠ موضع وعلم، جلهم لعلي لم أرَهم يعولون على هذه الكتب الثلاثة التي قد ورد فيها من مسائل اللغة والنحو والبلاغة والعلم الاجتهادي ما ورد.

نعم، لقد عاينت سعد بن جنيدل ومحمود بن شاكر وأحمد بن شاكر ومحمود بن شيت خطاب وأحمد بن محمد باشميل، قد عاينت من هؤلاء -وغيرهم قليل- اهتمامًا جدًّا، لكنه متقطع عدا ابن جنيدل الذي صنف سفرًا جيدًا عن الأماكن التي وردت في (صحيح البخاري) إلا أنه لم يؤصل المسألة، لكنه أجاد. رحم الله تعالى الجميع.

ومن هنا قد أنحو باللائمة على كثير من المؤتمرات والندوات العلمية واللغوية والثقافية أنها لا تعول على هذه الكتب، بل لم تخطر لهم على بال ظنًّا منهم أنها إنما هي في سياق سياسة العبادات فقط، بينما هي -الحق أقول- جمعت أشياء جليلة من العلم كمسائل اللغة الدقيقة وأسماء الأماكن من قرى ومدن ودول وملوك وشعراء وخطباء، وترجمت لقرابة ٥٧٠٠ لعلماء منهم ما يقرب من مئة، جددوا في مجال اللغة وفي مجال الرواية وفي مجال الدراية، ولا سيما فقه النوازل في أزمنة مختلفة.

لقد أخذ الزمخشري وأبو حيان التوحيدي والنسفي والبيضاوي وابن عاشور وعبدالله دراز وابن سعدي كما أخذ أبو بكر بن العربي كثيرًا من المعاني لكثير من

الآثار عن البخاري ومسلم والترمذي، وكذا عن الإمام سعيد بن منصور المروزي صاحب السنن.

ولقد نهل ابن منظور والفيروزآبادي ومثلهما الجوهري، أخذوا كثيرًا من معاني المفردات على الأماكن عنهم، وفعل هذا سيبويه في (الكتاب).

ولقد يظن الظان ظنًّا حسنًا أن النووي والعيني وابن حجر وابن رجب إنما شرحوا أمور العبادات، فانصرفوا يجمحون صوب مطولات اللغة ومعاجم الأمكنة، لكنهم لو تدبروا ما قام به هؤلاء الأربعة بجانب الإمام الكرماني لوقفوا على أن كبار العلماء من اللغويين والنحويين الشارحين وكذا من كتب في معاجم الأمكنة والأزمنة وسياسة الإدارة والطب والاجتماع قد نهلوا نهلًا، وأخذوا أخذًا من آثار البخاري ومسلم والترمذي وابن خزيمة. ولقد جرت عادة كثير من المتقدمين ألا يذكروا من يعولون عليه من باب عموم الإشاعة، إشاعة العلم، وليسوا يهدفون إلى السطو لأسباب كثيرة، ليس هنا محل بيانها.

وإني لأعجب العجب الكبير من المحققين في اللغة والنحو ومن المثقفين المهتمين بمثل هذا، وكذا في مسائل سياسة الإدارة العليا والاجتماع، أنهم لم يعودوا إلى مثل هذه المطولات التي ذكرت أصول العبادات والمعاملات، وكذا المواقع مع ما جرى منهم حول فقه النوازل.

وإنك لتعجب عند دقة السبر وتتبع الواقع الحي أن كثيرًا منهم في المؤتمرات، كمؤتمر أبها اللغوي وكذا المجمع العلمي في القاهرة والمجامع العلمية، لتعجب أنه لا يذكرون هذه الأصول، فكم آمل على الأقل المرور عليها من باب الاطلاع على الشيء دون تركه.

التجربة العلمية الحرة

القصد من هذا أن نحلل علميًّا، ونسبر الغور اللغوي لعلماء قصدوا العلم، ورحلوا إليه بواسع من صدر ثقيل.

ذلك أن ذكر (معاجم الرجال) يدعو دون نكير إلى تتبع آثارهم وكيف توصلت عقولهم الحرة المتينة إلى ما توصلت إليه؟

فلو أنك قرأت على مثال يقوم ولا يقعد كتاب : (تواريخ البخاري الثلاثة) أو أنك قرأت : (الكامل) لابن الأثير، أو طالعت لابن عساكر (تاريخ دمشق)، ثم نظرت ما صنعه كثير من المتأخرين خلال القرون الثامن الهجري إلى اليوم لوجدت فرقًا بينًا لا من حيث الحذر من الخطأ أو الحذر من إيراد الآثار الضعيفة أو السرد الخبري أو النقولات، بل من شدة التوقي من الاستجداء ونشدان الأحادية.

فهناك تجد إذا تأنيت، وارتاح بالك كثيرًا، وسرت نحو الشفافية تجد التوجه الحر لأمانة الطرح وصدق القالة ووعي المراد لن تستغني عن صفحة دون أخرى كلا، ثم كلا، بل تقودك القراءة الانقياد كله لا بعضه إلى إعادة القراءة مرات عدة، لكنك حينما تقرأ شيئًا مما صنف مما أشرت إليه آنفًا فتجد (وجرب) و(قارن) تجد السرد وعزة النفس والاستجداء وضعف كثير من الآثار، مع سطو خفي غاية في الذكاء.

من أجل ذلك أذكر هنا ما ذكر أخونا المحقق د. أكرم بن ضياء العمري من جملة من كتب التراجم التي لا شك أن المطالع لهذا (الجزء من المعجم) سوف يقتنيها بل ويلزم فحواها ليزين بها رفوف مكتبته وهذه هي كتب التراجم:

١- أبو بكر محمد بن مسلم (الحافظ) ت:٣٥٥هـ وكتابه: (كتاب في محدثي بغداد) وكتاب (تاريخ الموصل).

٢- محمد بن عبيدالله بن أحمد المسبحي ت:٤٢٠هـ.

وكتابه: (تاريخ المغاربة) و(مصر).

٣- ابن ماجه القزويني وكتابه: (تاريخ قزوين).

٤- أبو القاسم عبدالرحمن بن منده ت:٤٧٠هـ.

وكتابه (كتاب الوفيات).

٥- محمد بن عبدالله الربعي الدمشقي ت:٣٧٩هـ.

وكتابه: (تاريخ مواليد العلماء ووفياتهم).

٦- أبو بكر أحمد بن إبراهيم الجرجاني وكتابه: (معجم الشيوخ).

٧- الإمام الطبراني وكتابه (المعجم الأوسط) وكذا (المعجم الصَّغير).

٨- عبدالله بن جبلة الكناني وكتابه (كتاب الرجال).

٩- أحمد بم محمد البرقي وكتابه : (كتاب الطبقات).

١٠- أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة الكوفي وكتابه: (التاريخ الكبير).

١١- أبو جعفر محمد بن الحسن وكتابه (الفهرست).

قلت: وهذا كتاب لي عليه ملاحظات.

قلت كذلك: ليت أكرم العمري حين ذكر هذه الجملة من الكتب بيّن ما لها وما عليها، فإنَّ ذلك لو فعله يكون حسنًا؛ لأنه مجرد العرض دون توجيه أو ملاحظة مدعمة بدليل ليس بشيء.

ولعل الملاحظات والتعليقات على كتب سلفت بوحي من الفهم سديد ومن باب الحرص على التكامل البحثي يعطي هذا وذاك روحًا مفيدة ومستفيدة.

ويبقى الأصل هنا أن ما دونه أولئك من الكتب التي حوت وجمعت وأسست يبقى الأصل أن علم سياسة التراجم وسياسة اللغة نسقان متحدان دون ريب، وتستشف من هذا كله قوة البذل العلمي الحر وقوة النظر اللغوي الجيد ناهيك أن قوة الاطلاع على آثار القوم تدفع العقل السليم الواعي إلى التحرر من قيد بل قيود العاطفة والتردد وسرعة الكتابة هكذا، ولا سيما العقل قد بدأ يتحرر شيئًا فشيئًا من المحاكاة وتقليد الآخر، وليس من سبيل إلى زيادة حرية العقل إلا بتمام نزاهة القراءة وسبر غور الذين جودوا، وأضافوا.

الرحلة العلمية واللغوية

جرت العادة منذ أقدم الأزمان أن يرحل كثير من كبار العلماء لطلب زيادة العلم رواية ودراية، وهذا عند أولئك القوم يرونه سببًا كبيرًا لزيادة الفهم وزيادة وعي العقل حتى يكتسبوا بجانب الموهبة التجربة وسداد الحكمة وقوة الإدراك.

١- فقد رحل (سيبويه) إلى: حماد بن سلمة.

٢- ورحل (لأصمعي) إلى: الخليل بن أحمد الفراهيدي.

٣- ورحل (أحمد بن محمد بن حنبل ويحيى بن معين) إلى: عبدالرزاق صنعاني عالم اليمن في زمانه.

٤- ورحل (مسلم بن الحجاج) إلى: ابن وارة.

وهؤلاء جملة من الصحابة رحلوا إلى غيرهم من الصحابة كذلك، فمن هؤلاء الأجلاء:

١- فقد رحل (جابر بن عبدالله) إلى: مسلمة بن مخلد في مصر.

٢- ورحل جابر كذلك مرة أخرى إلى الشام للقاء عبدالله بن أنيس.

٣- ورحل (أبو أيوب الأنصاري) خالد بن زيد إلى (مصر) للقاء: عقبة بن عامر.

٤- وذكر الإمام المؤرخ الخطيب البغدادي في كتابه (الكفاية) ص٢٠٣-٤٠٢ الطبعة الأخيرة ذكر أن رجلًا من الصحابة قد رحل إلى فضالة بن عبيد إلى مصر، فلما قدم عليه قال له: «أما أني لم آتِك زائرًا، ولكني سمعت أنا وأنت حديثًا عن رسول الله ﷺ رجوت أن يكون عندك منه علم» وهذا قد جاء عند الخطيب كذلك في كتابه المشهور (الرحلة في طلب الحديث) ص٥٧-٥٨.

٥- ويكفي من هذا رحلة (موسى عليه السلام) إلى: الخضر كما في سورة (الكهف).

ومن التابعين الذين رحلوا من كبار الطبقة الثالثة والرابعة من هؤلاء:

١- فقد رحل عامر بن شراحبيل الشعبي من العراق إلى مكة.

٢- بل قد قال أبو العالية وهو من الثالثة قال: «لقد كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ فلم نرضَ حتى ركبنا إلى المدينة، فسمعناها من أفواههم».

وقد كان هذا سببًا كبيرًا من أسباب السبق العلمي الجليل الذي خلفه القوم لنا بحيث لم يستطع أحد حتى اليوم أن يشابه (سيبويه) مثلًا.

أو يشابه أو يقارب (مسلم بن الحجاج القشيري) دع عنك (جابر بن عبدالله) أو (أنس بن مالك).

ولهذا أطنب كثير من المستشرقين المعتدلين في ذكر تراجم المجددين من كبار العلماء خلال العصور الذين أثروا العلم وقوة الفهم السديد، وهذا يدعوني إلى القول: إن نبحث عن سبب أو أسباب نشوء كثرة التصانيف اليوم وكثرة الكتابة دون إضافات نوعية تستحق القيام لها والشد عليها والمباركة لها، فجل

الموجود إلا القليل إنما ذلك كثرة النقل مع كثرة الاستطراد مع زخم الخطاب الإنشائي وكثرة الآثار المنقولة دون تخريج جيد لا يتم التعقيب عليه.

وهنا سبب آخر وجدته في أثناء تدريسي في الحرم، ومصر، والرياض، والمدينة، أن هناك خلطًا يقع كثيرًا سبب تأخر بروز العلم التأصيلي الجيد وذلك هو الخلط بين عالم الحديث، وعالم الفقه، وعالم التوحيد، بل هناك خلط سيئ بين الداعية والعالم، وبين الواعظ والعالم.

ذلك أن الشهرة لذلك العالم مثلًا لا تخول لك أن تقرأ عليه (صحيح البخاري) إذا كان فقيهًا أو تقرأ عليه (بلوغ المرام) إذا كان عالم توحيد؛ لأنه أي العالم الذي تقرأ عليه لا يشرح أحاديث منسوخة، أو مقيدة، أو ضعيفة كما في (البلوغ) ثم هو لا يبين ذلك، فيضيع بهذا العلم، ويذهب الوقت هدرًا، فينشأ من أجل ذلك التعالم، ولعل بعضهم لا يقصد هذا لكنه سمعه من شيخه في (الجامع) أو (الدرس العلمي) فنقله أو ذكر كما سمعه، وهذا قد وجدته كذلك في بعض المقالات الأسبوعية، فتجد من يذكر مسألة شرعية أو ثقافية، ثم يقوي رأيه فقط دون تأصيل لها وبسط جيد متين. أفليس هذا يدعو إلى المراجعة والصدق مع النفس بلازم معرفة المرء قدره.

أسباب تردي علم اللغة لدى العلماء... والكُتَّاب اليوم

هذه إجابة أضيفها في هذا الكتاب لأهمية السؤال وللحاجة إلى الإجابة؛ لأنها في صلب الموضوع.

الأستاذ: محمود بن مراد ديره ولد حننا، موريتانيا.

الأستاذ: عيد بن مجلي بن عيد العداجي، قطر.

ما وردني منكما يصب في مصب واحد حيال: الموهبة اللغوية مضافة إلى الموهبة العلمية، إذ اللغة دون فهم جيد وصفاء ذهن وقاد، وعلم يتكئ على قاعدة صلبة، اللغة دون هذا كله إنما هي تعالم ليس إلا، وهذا هو الذي كنت دائمًا أشير إليه.

وقد آتى أكله.

ولعل سبب تردي اللغة نطقًا بها، وكذا حال تردي مسألة الاجتهاد العلمي إنما يعود جله إلى أسباب لعل ذكرها يقلص هذا التردي، ويقود إلى وعي جيد في هذا المسار.

ولا أخالني أتيت على بيت القصيد هنا، لكن ذلك أجلبه بعد تجربة وتجربة، وقراءة وقراءة موازنًا بين عصور خلت وبين هذا العصر.

فمن هذه الأسباب يا أخ محمود، وعيد:

١- فقدان الموهبة.

٢- ضعف الفهم أو الفهم الأحادي.

٣- عدم التأني في التلقي.

٤- تجزئة القراءة أو الملل منها.

٥- الخلط بين قواعد: سيبويه وابن جني والكسائي والفراء والمبرد وسبب هذا في غالب ظني عدم قراءة وتدبر منهج وطريقة كل من هؤلاء.

٦- القراءة لضرورة الكتابة، أو التدريس في الجامعة مثلًا، وأريد هنا أن الباحث أو الكاتب لا يقرأ قراءة حرة عميقة متدبرة، كلا، إنما يتصنع، ويطالع من أجل أن يكتب كلمة أو مقالًا، أو أن يلقي محاضرة على طلابه.

وفي هذا بالذات، ومن خلال حضوري لكثير من المؤتمرات والندوات والورش اللغوية أو العلمية لا أجد إلا التكرار ومجرد كثرة الاستشهادات وتنوع الأسلوب واختلافه، لكنه يصب في ذات الدائرة التكرار.

ولا أبرح مكاني، وايم الحق أن فقدان التجديد اللغوي والتجديد العلمي هذا أيها الفاضلان (محمود وعيد) هذا سببه دون ريب.

٧- نما إلى علمي حين كنت في بعض البلاد العربية أن هناك من يكلف غيره ويرغب إليه أن يكتب له ويبحث عنه، فإن صح هذا فهذا هو السطو من نوع آخر، وهذا هو: التدليس والزيف، ولا تعليق لي على هذا.

٨- القراءة لمجرد القراءة والبحث لمجرد البحث دون الوصول إلى غاية كبيرة كالإبداع النوعي والإضافات الجيدة.

وهذا مشاهد كثيرًا في الندوات والمحاضرات والكتابات الصحفية الدائمة، بل وفي كثير من المجلات المحكمة تلك يضايقني فيها ومنها كثرة: الهوامش، والاستطراد وعدم التأصيل.

٩- إذا كان التجديد في أصله نقلة نوعية ممتازة فإن سبب هذا هو (الموهبة).

ولست أزعم فقدان الموهبة كلية لكنني أرى خلال الرماد وميض نار، فهناك دعوى تحتاج إلى دليل مادي بيّن جدًّا، هناك من يزعم قوة علمه وعمقه وكثرة نظره وشدة استيعابه حتى لعله يعقب على: البخاري مثلًا، أو: الترمذي أو: الدارقطني أو: سيبويه أو إبن جني أو ابن مالك أو ابن معط.

فإذا أنت رحت تقرأ، وتتأمل، وتقارن بعد فهم وقوة إستيعاب وطول نظر وتجرد وشفافية، وجدت يا أخ: محمود ويا أخ: عيد وجدتما أن هناك قصور فهم بعلة عدم الإحاطة بالمنهج الصواب، وإلزام من ذكرت من (كبار العلماء) بفهم خاص ورأي خاص، وطريقة خاصة.

هذا وحده كافٍ بلك وعجن القول على علاته، أن السائد اليوم إلا ما شاء الله تعالى هو الطرح المكرر بأساليب متنوعة.

ليس هناك شعور بالمسؤولية الحقة/ كلا، ليس هناك هذا. من أجل ذلك لا يمكن العتب، ولا يمكن لوم الشباب إذ تردى بعضهم في حقيقة اللغة نطقًا وكتابة.

كذا الأمر جزمًا في ذات العلم بل في شأن أولوياته.

ولعل هذا كافٍ ليدرك المعنيون ضرورة العمل على نقلات نوعية لا بد منها.

نقد الطرح الروائي بين السرد والواقعية في الدولة الحديثة

أضافت المجلة الثقافية سبقًا جيدًا في مجال الطرح الروائي فيما تناولته عن القصة القصيرة، وذلك في يوم ١٤٣٩/٣/١٤هـ من خلال صفحاتها الأربع عشرة، وقد جاء هذا الملحق مرتبًا ومتنوعًا في طرح سبّاق لبعث الرؤى التي يلزم منها إضافات نوعية غير مسبوقة في مجال القصة.

وقد اطلعت على هذا العدد، وتأملته كثيرًا، وجرني هذا إلى استرجاع ما نظرته وقرأته من كثير من الروايات والقصص في هذا الحين وفي أحايين خلت.

وقد طرح المشاركون آراء جيدة وإن كانت مختصرة إلا أنها تدل على تلمس جعل القصة قصةً على الحقيقة لا على السرد أو الإنشاء أو الخواطر.

ولما كان موضوع القصة ذا حيوية دافقة وهي نوع مما يطلبه الناس منذ أقدم العهود، فإنني قد أقسو قليلًا في طرحي هذا لكن لعله من رائد قوم لا يكذب أهله.

القصة فن وعلم في آن واحد، إنها تحكي تجربة وحكمة كما أنها تحكي الأمثال على سبيل المناقشة أو الأخذ والرد، وهي تحكي إلى هذا حياة الشخص في صورة أو صور أو تحكي حياة الشخص في مراحل متعددة قد يكتنفها شيء من الواقعية، وقد يكتنفها شيء من الخيال الذي يقرب من الامتداد اللامتناهي.

وقد جمع الإمام ابن الأثير الجزري في كتابه الخالد (جامع الأصول) أكثر من ثلاث مئة قصة ورواية حكاها النبي ﷺ وتناقلها العلماء من مؤرخين

وكتاب سير وأخباريين قد جرت هذه القصص مجرى العقلانية جريًا مع حقيقة واقعية من باب ربط الماضي بالحاضر وربط الحاضر بالماضي ليلتقي العقل والقلب والعاطفة على وتيرة واحدة لتكون حياة الإنسان ذات جد وذات مسار يقوم على أساس في سبيل مقيم.

فقد أورد هذه الروايات التي يقبلها العقل، ولا يزيغ عنها طرفة عين، فقد أورد قصة (من انطبق عليهم الغار) وقصة (حاكم نجران والغلام) كما في صحيح مسلم، وأورد قصة (الأعمى والأقرع والأبرص) وأورد قصة (عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن أبي شيبة) وأورد قصة (أبو مسلم الخولاني) بطرح متناهٍ عالي القدر من حكمة يحتاج العقل المكين أن يرددها تترى.

وأورد إلى هذا قصة (أبي سفيان) حينما جاء من الشام بتجارة إلى أهل مكة، وأورد كذلك قصة (بحيرا الراهب) بسبق يحتاج المرء فيه إلى أن يكرر القراءة ليعرف حقيقة الرواية والدراية عن طريق القصة التي تأخذ بالعقل السليم إلى مصاف العقل الذي يرى من خلال هذه القصص ما الحياة وكيف تكون.

أورد هذا الذهبي في (تذكرة الحفاظ) وابن كثير في (البداية والنهاية) وابن عساكر في (تاريخ دمشق) وكذا فعل الطبري في (تاريخ أخبار الأمم والملوك)، ومثلهم جرى قلم ابن هشام وابن إسحاق على وتيرة ذات طرح قصصي تخال أنك حين تقرأ أنك تقرأ الحياة في سياستها كلها من خلال فقه النظر وفقه العقل وفقه القلب وحقيقة الأمثال والحكم وقوة التجربة.

إن هذا الطرح في هذه الأسفار تميز بقوة الألفاظ وقوة المعنى ناهيك أن من لديه استعداد لتذوق الرواية الحقيقة فإنه سوف يستصحب معناها إلى آخر حياته.

إنها قصص وروايات تقود اليد إلى الأخذ بما جاء فيها من سوابق التجربة والحكمة التي تقود صاحبها المطالع لها إلى الأخذ بها على طول المطال.

فلا جرم فإن ملخص القول فيما يمكن قوله هنا: إن ما ورد في هذه الروايات اشتمل على ما يأتي:

١- قوة المفردات مع ضخامة المعنى.

٢- قصر القصص مع ما تضمنته من معانٍ جادة وقوية مركزة.

٣- ابتعدت عن الخطاب المباشر والسرد التلقائي.

٤- ابتعدت عن الخيال، إذ إنها جاءت على أساس السير على منهاجها.

٥- لم تخرج عن إطار الرواية أو القصة التي يلقي فيها القارئ حقيقة حياته وما يريد من خلالها.

٦- أكدت هذه الروايات وهذه القصص أن الإنسان يحتاج إليها لضرب الأمثلة الحقيقة بعيدًا عن الخيال الذي قد يعمي العقل، ويجعل القلب هو الحاكم دون سواه.

ولعلي أجزم أن القصة التي تناولتها الثقافية تناولًا جيدًا كان طرحها داعيًا إلى تأمل ما طرحته؛ لأن القصة يطلبها القاصي والداني على حد سواء، ولست أشك أن الإنسان يميل إلى القصة كما يميل إلى الرواية وإلى الأقصوصة ميلًا قويًا يتلمس من خلالها التجارب كما يتلمس منها التأمل وقراءة التاريخ والأخبار على صورة من الصور يحتاج إليها في كل الأحايين، ولهذا قال تعالى: ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأعراف:١٦٣].

وقوله تعالى في قصة عجيبة ذات أبعاد عقلية تطبيقية واقعية: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف:١٧٥]، في قصة عجيبة لا يستطيع العقل العظيم أن يدركها إلا بعد تأمل وقوة إدراك وسبق فهم متين.

ولقد جرت العادة أن القصة إذا كانت ذات مسار واقعي بعيد عن الخيال المسف أنها قد تؤثر في القارئ، وتأخذه إلى ما أراد القاص من بني البشر، ولا سيما إذا كان ينزع إلى المصداقية بعيدًا عن العاطفة والولع بحب ذيوع الصيت.

لقد قرأت كثيرًا من القصص في فترات متفاوتة منذ أن كنت في المرحلة المتوسطة والثانوية والجامعية، فأجد أن أغلبها يميل إلى السرد الذي قد يؤثر في القارئ لكنها تميل إلى السخرية لشيء وبشيء فيه شيء من الغموض كما فعل نجيب محفوظ في (أولاد حارتنا)، ولم أرتح لهذه الرواية أو هذه القصة لما فيها من أوصاف قد لا تليق، وفعل مثله حيدر حيدر وإحسان عبدالقدوس بشيء من الجرأة في الأخلاقيات.

وهناك بعض الروايات أو إن شئت قل: القصص ليست إلا (خواطر) محكية أو أنها أفكار مسرودة على أساس الحوار كما فعل عبده خال في روايته (ترمي بشرر)، وكما صنعت رجاء الصانع في روايتها (بنات الرياض) وقس عليهما كثيرًا، فإن هاتين الروايتين أو القصتين لا أجد أنهما مع غيرهما ترقيان إلى مصاف الرواية أو القصة التي تجد أنك تتفاعل معها ذلك التفاعل الذي يؤثر فيك على أساس المنطق الحي المستديم.

إن عبده خال ورجاء والشقحاء وخالد اليوسف ويوسف المحيميد يميلون كل الميل إلى تلمس الوصول إلى حقيقة الرواية والقصة، وهم يبذلون جهدًا جيدًا في هذا المجال لكنهم فيما كتبوه فإنهم أشبه ما يكون بكتابة الآراء والخواطر على أساس المناقشة والحوار بأسلوب أقرب ما يكون إلى السرد الإنشائي، لكن هذا مع هذا يبشر بمستقبل جيد، ولعلي أنحو عليهم باللائمة أنهم يكررون المواقف والحوار في أكثر من رواية وأكثر من قصة يخرجونها للناس.

وأجزم كل الجزم لا بعضه أن غياب النقد الأدبي لكونه مفقودًا فإن الأمر سوف يستمر على هذا المنوال.

ولعل البعض يسأل: ألا يوجد نقد؟ فأقول: بلى، لكن الموجود إنما هو دراسات للأعمال الأدبية من قصة ورواية وشعر ليس إلا، ونحن إذا خلطنا بين النقد ودراسة الأعمال فإن هذا سبب للمراوحة بحيث يسير القاص والروائي ومعهم الشاعر والمثقف في سبيل واحد، وينتج منه عدم التجديد، ولعله يقود إلى التقليد ما في ذلك شك بل لعله يدعو إلى المحاكاة، ويدعو إلى شيء من السطو لكن في غاية الذكاء والفطنة.

ولست أتهم أحدًا في هذا لكن الأمر يدعو إليه من وجه قريب.

والقصة اليوم القصيرة جيدة وإن كانت قليلة فأحيانًا تخرج في كتاب واحد وأحيانًا تخرج قصص كثيرة قصيرة يجمعها كتاب واحد، لكن الذي عاينته أنها تميل للعجلة والاختصار، والنتيجة غالبًا ليست بذاك أن القاص يعصر نفسه عصرًا، ويقسرها قسرًا لكي يكتب القصة، ويأتي من جراء ذلك الطرح الإنشائي أشبه ما يكون بمذكرات علقت في ذهنه من موقف أو مواقف فكتبها.

إن القصة والرواية لا أشك في هذا، ويشاطرني فيه كبار العلماء والمثقفين أن القصة موهبة ودون الموهبة، فإن القاص هنا والروائي يتكلف صعدًا إلى أن يكون قاصًّا أو روائيًّا.

وبحكم غياب النقد فإن المنوال سوف يسير على ما هو عليه، ولذلك أدعو إلى إعادة النظر من كل الأدباء والمثقفين لدراسة وضع القصة والرواية على أساس العالمية، وعلى أساس طرح قصصي وروائي يبقى خالدًا عبر القرون لما يحمله من تلاد وقيم وأمثال يحتاج إليها العقل قبل أن يحتاج إليها القلب وقبل أن تدعو إليها العاطفة.

لعلي بهذا قد أسهمت بشيء ذي بال في هذا المجال الذي نحتاج فيه إلى الواقعية والمصداقية على سبيل متناهٍ من الحقيقة التي يريدها القارئ لكي يكون شيئًا مذكورًا في مجال القوة والحنكة وسمو الأخلاق وسمو العقل، على مثال

طرحه أصحاب الكتب التي ذكرت أنفًا، وهي متداولة بين أيدي الناس في هذا الوقت وفي كل وقت.

المشكلة في طلب الرئاسة (١)

لعل من أصول تحرير العقل من عوالق النفس وحيثيات الهوى وتبريرات القلب أن أصادق نفسي على كل حال حتى ولو كان ذلك شديدًا علي كل الشدة وقويًّا علي كل القوة وهو من الصعوبة بمكان.

والشهوة الخفية هي السعي من هنا وهناك لطلب الحاجة الملحه تلك التي تدعو إليها العاطفة، ويدعو إليها القلب دون نظر إلى رؤية العقل الحر النزيه.

وساسة العلم وساسة الحضارات منذ أقدم العهود كانوا ينظرون إلى عيوب أنفسهم دون مهادنه قبل عيوب غيرهم كذلك قال المحللون وأهل التحقيق من الذين سبروا غور نشأة العلم ونشأة الحضارة سواء بسواء.

ولعل أسوأ شيء في هذا أن اتباع ميل العاطفة وحب ذيوع الصيت هذا وحده كافٍ ليكون المرء مريضًا ولو أقام ألف دليل على أنه ابن بجدتها.

وكثيرًا ما كنت أنبه في بعض الندوات العلمية وكذا في بعض المؤتمرات إلى شيء ذي بال وهو أن يكون المرء على سجيته على حال لا تقبل إلا هذه الحال.

والعلم في أصله موهبة وكذا السياسة والموهبة هنا وهناك لا تجتمع هذه وهذه مع من يريد أو يسعى إلى حب الذات لأنه سوف يتضاءل ولو بعد حين طويل.

أما من أجاد وسدد وقارب فذلك قريع الأيام لكنه قد يجد مشقة لعل من أقلها الغمز واللمز وكذا الحسد لكن خلال فنون متنوعة.

ناهيك أن الذهبي في (سير أعلام النبلاء) وكذا صاحب كتاب (قصة الحضارة) وكذا صاحب كتاب (الإنسان ذلك المجهول) وكذا صاحب كتاب (بناء العقل) كل هؤلاء حقيق عليهم أنهم بينوا أن الموهوب من العلماء أو من الساسة سوف يقف في طريقهم قريب أو زميل أو صاحب: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤] لكنهم فضلًا من الله يتخطونه، ويلزمون الصمت ذلك أن التغافل ثلثا العقل المكين.

ومن هنا أبين في شيء من البسط الخفيف ما يأتي:

أولًا: الحق في أصله اللغوي: الصواب وأصل الكلمة (ح. ق) على سبيل التنكير.

ثانيًا: الحق إصابة المراد من خلال الحكم أو النظر أو الاجتهاد غير المعارض على وجه مطلق.

ثالثًا: الحق إنزال النظر حسًّا ومعنى على واقعه لا يحيد عنها شبرًا حتى يرد الحق إلى صاحبه ممن أخذه منه بجور أو ظلم إذا كان من له الحق ضعيفًا أو عاجزًا أو لا يحسن حفظ الحق الذي له.

رابعًا: الحق في أصله كل لا يتجزأ، وإن اختلفت الحقوق بين الخلق فإنما أقصد أن المراد هنا ذات الحكم لإيصال الحقوق إلى أهلها ولا سيما ذات الحكم صعب جدًّا في حال عدم وجود الموهوب القوي التقي.

خامسًا: الحق بيان الأمر بدليله الناهض لا يحيد عن هذا طرفة عين حتى ولو على ذاتك أو ما بين يديك.

سادسًا: الحق عند عامة أهل اللغة مصدر يلازم الألف واللام فهو هنا مستغرق لكل حق ينشده صاحبه.

وقول العرب (حق أبلج) و (الحق أبلج) إنما يراد بذلك تمام الوضوح للوضوح فقط؛ لأن هناك من يعدد الحق بذاته لا بأنواعه وهذا غلط كبير.

المشكلة في طلب الرئاسة (٢)

ولذلك تلوم الإنسان نفسه إذا وصل إلى شيء ليس يريده إنما من باب حب الرئاسة لكنه يسفه نفسه ووخز الضمير، فيرضى بأي رئاسة لا تقود إلى الفحولة على أصل الريادة والسؤدد ليكون سيدًا في حاله ومقاله.

وهو هنا عند تركه ذلك يصاب بالخيبة والأسى لأنه ترضية للنفس الثالثة وحب للصيت دون تنبه لذات الريادة ودوام السؤدد الحميد، ويكون محطة للخلق والعلم والصفاء وإعطاء الحق صاحبه وإن كان يمقته أو يعاديه، فيبقى عند ذلك وحيدًا حتى يذهب بعلة مرض ما من الأمراض.

وهذا النوع يصعب عليه الاعتذار وإنما بدأ أنه يعتذر بأساليب هشة ليرضي نفسه أنه اعتذر، وذلك لكون هذا الصنف يرى أنه يعلم كل شيء، فيتلبس بكل شيء حتى إذا سقط هلك من حيث الدواخل المعنوية.

سابعًا: الحق من حيث هو ثابت لك أو عليك عن الناظر جاء في بيان أمره هذا النص «على مثلها فاشهد» أي على مثل الشمس رؤية ووضوحًا.

وذلك أن الحق بالإقرار من البالغ العاقل المميز من غير إكراه أو شهادة العدول العقلاء، ثم تأتي القرائن لكنها لا تسد مسد الدليل إلا في مواضع ليس هذا موضعًا شرحيًّا لها وبيان أنواعها وطرقها.

ثامنًا: الحق عند أهل الكلام أن يتجزأ، فقد يكون الحق عندك في شيء صوابًا، وقد يكون هو نفسه عند غيرك ليس بصواب وذلك أنهم يذهبون في الحق

مذهب الرأي المجرد من النص ويقولون: العقل يقضي على النص؛ لأنه محط التكليف، ولا يدرك هذا النوع محدودية التفكير العقلي وأنه له حدٌّ ينتهي إليه، فإذا هو تخطاه بدأ العقل يتيه في اللامنتهي وفي اللامتناهي لعجزه عن إدراك ما لا يمكنه إدراكه أصلًا، ثم هو يقع في الأتون يشعر أو لا يشعر أو يقع في دائرة حب الذات وعدم الإقرار بالعجز، فيقع ضحية هذا الأمر.

تاسعًا: الحق في أصله انبعاث لا شعوري يوحي لصاحبه أن هذا هو الحق، ولهذا جاء في هذا المراد: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤] وجاء في الصحيح من حديث: «ولن يشاد أحد الدين إلا غلبه فأوغلوا فيه برفق»[(١)].

عاشرًا: الحق إتيان الصحيح من الأمور والقطع في الحكم على من له الحق أو عليه الحق كحق رد المال لصاحبه أو رد الزوجة إلى زوجها، وقس على هذا ما شئت من كبير الأمر أو صغيره من قليله أو كثيره.

(١) أخرجه البخاري (١/١٦ رقم٣٩).

العلم واللغة بين وزارتي الشؤون الإسلامية والثقافة والإعلام

يحتل المصدر مكانة جليلة في كلام العرب وله وقع في الحس في أثناء وروده في مطلق الكلام وتقييده ولا سيما أنه اسم قائم بذاته دال على حصول حدث ما تجرد عن الزمان.

ولهذا نجد كثيرًا من القوم اليوم، أولئك الذين يبحثون أو يحققون أو يكتبون المقالات لا يراعون حقيقته وفعله بل لا يلتفتون إليه.

فهم يجعلونه مثل المفعول له أو المفعول لأجله، فيقع تغيير في النسق المراد إيصاله إلى المتلقي، فلا يدري هذا مراد المتكلم أو مراد الكاتب «إن نقد التأليف في اللغة اليوم إنما يتطلب جهود وزارة الثقافة والإعلام، وكذا: الجامعات الشاعرة بالمسؤولية والنوادي والهيئات العلمية والأدبية على حد سواء»، وجاء أيضًا هناك: «وليس بعيدًا توجيه اللوم على (المجلات المحكمة) ودور النشر... إلخ».

كله ذكرته وأوردت مثله مع أمثلة كثيرة محققة في كتابي (نقد آراء العلماء والمؤرخين ومروياتهم) ص١.

ومكمن القول فيما يمكن قوله هنا هو مكمنه فيما يمكن فهمه على كل حال ذلك أن أصل العلم لا يكفي فيه التلقي ومجرد الحفظ أو مجرد الفهم العام لخطاب النص.

كانت اللغة وكان الحديث وكانت أصول وقواعد العلم تتلقى بسداد فهم دقيق خاص لكل علم ولكل نص مدون يكون فيه العقل قد بلغ الغاية من الشعور بالمسؤولية تجاه تبليغ العلم بفهم سديد ورأي رشيد بعيدًا عن الحفظ اللهم، ما يوجبه ضرورة حفظ فلا بد منه لحفظ عامة قواعد العلم والرواة في الأسانيد وطبقات الجرح والتعديل ومعرفة أحوال رواة الآثار وإلا ما لا بد منه أيضًا وذلك فيما لا يصح إلا أن يكون كالتجديد وآلياته.

وضوابطه في سياسة سياق فهم وضع القواعد في وضعها الصحيح، وهذا ما كان قد حذر منه كبار العلماء خلال القرون الأول إلى السابع فتدبر، فكيف يلام مثلي وقد رأى تخبطًا ما كان يجب أن يكون.

ما كان يجب أن يكون وإلا فكيف يعرب المصدر على أنه حال؟

أو يظنه البعض تمييزًا؟

أو يدون على أنه مفعول به؟

أو هو مفعول لأجله؟

والمصدر كما جاء آنفًا: اسم دال على حدث تجرد من صفة الزمان، إذًا ليس تمييزًا ولا ليس حالًا وليس مفعولًا وإن شئت فلا يكون: ظرفًا، أنصت لأي محاضرة لأي مداخلة تكون أو إن أردت اقرأ ما شئت من كلام فسوف تجد شيئًا يلفت النظر إن كنت من ذوي الاستعداد العلمي أو اللغوي ناهيك إن لم تكن من ذوي الاستعداد أن تكون ممارسًا بحكم كثرة الاطلاع.

التهاون والتجاوز يجران إلى: السكوت عن شيء ما يحسن أن يكون ولا سيما في أساسيات العلم وقواعد اللغة.

لم تدم الحضارة في العهود المتعاقبة إلا بفضل الله تعالى ثم الحفاظ على أصل هذه الحضارة العلم، والعلم وحده بناء وشجرة وارفة تغذي الأجيال:

بثمارها وبظلها وبرائحتها، بمركزها علمًا يهتدى للوصول إلى سوامق البقاء وحفظ البيضة.

والمصدر أصل في اللغة، أصل في النحو، أصل في البلاغة.

وإذا كان كذلك فلك أن تقرأ القرآن أو السنة الصحيحة أو ما شئت من شعر العرب وأمثالهم فإنك لن تدرك كثيرًا من المرامي والمعاني والدلالات إلا إذا ألممت بشيء كثير من هذا العلم وذاك وهذا كله مما يدرك ويعلم بالضرورة، كان المسلمون في الأصقاع كافة في البلدان كلها يعلمون أبناءهم ومن حولهم أمران جليلان (الأخلاق واللغة)، بل إن كثيرًا ممن يشعرون بالمسؤولية تجاه هذه الأمة منذ القرن الأول يؤكدون على هذا جل التأكيد لا يحيدون عنه طرفة عين.

وقد يكون الشاعر جليلًا قديرًا في شعره فخيمًا يقوي في شعره (الإقواء) يسقط من العين حتى يستقيم شعره على قافية واحدة صلبة بعيدًا عن التكسب وعن الهجاء المذموم وبعيدًا عن التزلف، إنما يدور شعره حول التجارب والحكمة والأمثال ومثل ما يقع في اللغة يقع في النحو والبلاغة وأجل حظرًا ما يقع من كثير من العلماء في كثير من الفتاوى أو الدروس أو المحاضرات، وكنت قد نبهت إلى هذا ولقي هذا ترحيبًا جيدًا في حينه لكن ومع هذا ينقل إلي في المجلس العلمي الخاص كثير مما يحصل وهذه أمثلة تغني عن كثير مما يمكن إيراده في سبيل مقيم.

يقول أحد طلاب العلم:

١- (وهذا مذهب الجمهور على هذه المسألة).

هل هم المحدثون؟

هل هم الفقهاء؟

هل هم المفسرون؟

وجاءت مناظرة علمية أسفت كثيرًا كثيرًا.

٢- على حصولها لكن مما ورد فيها قال أحد العلماء: (وهذا دون شك أصح القولين».

أصح القولين عند من؟

أين دليلهم؟

من ذكر هذا؟

٣- وجاء هناك:

هذا الذي أرجمه، هذا رأي طيب أين أدلة الرأي الآخر؟

أين تعليلهم؟

على أي أساس اجتهدت؟

٤- وجاء كذلك:

«اترك عنك هذا يا رجل، هذا الحديث منسوخ».

لماذا لم يذكر الناسخ ما دام الحديث هذا منسوخًا؟

وجاء أيضًا:

٥- هذا قال به جمهور الصحابة.

من هم الجمهور؟

وما حد تعريف الجمهور؟

أين ما ذهب إليه الصحابة الآخرون؟

أين أدلتهم؟

أين التعليل؟

من ذكر هذا من المتقدمين؟

أرأيتم الغلبة في الحوار في المناظرة؟

إنما جاءت بسبب الإلزام بطريق ذكي لكنه لا يفوت على المشاهد لا ولا على المستمع كذلك.

وها هو واعظ جيد له حضوره الجيد كذلك كان قد ألقى درسًا لا بأس به، فمما قال هناك بحسب الشريط:

٦- أيها الإخوة الكرام، هذا ما جاء عند الشاطبي وابن قدامة المقدسي.

ماذا جاء هناك؟

فبعد أن تحدث عن أصل طهارة الماء قال هذا.

وما دخل الشاطئ في هذا؟

وأين أجده عنده في الموافقات؟

أما ابن قدامة فقد ذكر هذا بواسع من الطرح وقال: «وقد جاء في الحديث: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له».

أين الحكم على هذا الحديث؟

لماذا لم يبين درجته؟

والحديث ضعيف بل قال كثير من الحفاظ هو: باطل.

لكن الذي يأتي الفواحش والمنكرات لا شك أنه آثم ما بين كبيرة وصغيرة بحسب الذنب وصحيح أن الصلاة التي لا تؤدى بشروطها وأركانها وواجباتها إنما هي عادة وليست عبادة، وكان يغنيه جدًّا ذكر هذا دون ذكر هذا الحديث.

فكان كلما جاء بنصيحة أورد آثارًا، ثم قال: «والمعنى صحيح» ومتى كان الأثر صحيحًا إذا كان المعنى صحيحًا؟

فقد يكون المعنى كذلك والأثر ضعيفًا فلا يكون حجة.

ولهذا أنبه جميع الباحثين وطلاب العلم وعامة المثقفين ألا يتكلوا على المعاني، ولا يحرصوا على الاجتهاد هكذا فكل شيء له ضوابطه وآلياته ولا سيما ضخامة العقل وضخامة الاطلاع وسعة البطان وصدق التجرد وتمام العدل.

القضاء... الموهبة والمسؤولية في الدولة المعاصرة

الأصل في سياسة الدول بحسب مسارها السياسي والأمني والاجتماعي والقضائي أن ذلك كله يعود جزمًا إلى الموهبة، الموهبة غير المكتسبة، فإن جاء الاكتساب كان شحذًا للموهبة وقوة لقدرتها على العمل الجاد المركز المتقن سواء بسواء.

والقضاء أصل من أصول بناء الحياة؛ إذ إليه يعود تقرير الأحكام بالإلزام بين طرف وطرف وخصم وخصم وجماعة وجماعة؛ ذلك أن القاضي في مجلس القضاء يحكم بما يظهر له بتأنٍّ وروية واتزان وبُعد نظر مع سابق عمق جيد وصفاء ذهن مكين وسعة اطلاع سالم من كل خلل، والموهبة تزيد هذا بصائب من حكم جليل.

ولا ينفع في القضاء العجلة أو الأخذ بمجرد الرأي أو تطبيق حال على حال أو واقعة على واقعة أو قضية على أخرى، فضلًا على الأخذ بنص ضعيف أو نظر مرجوح.

وإذا كان القاضي قد طُبع على الموهبة وخلق عليها ساس نفسه؛ فيتكشف له وأمامه معضلات الأمور، تلك التي قد تنقلب على غير فيؤجل القضية أو ينظرها، ويكون في نظره نوع من وجوب إعادة النظر.

ولهذا نجد الموهوب ليس في القضاء فقط يدرس ويوازن ويبدي ويعيد ويستشير، حتى من لم يرَ أنه على سياسة، وقد فعل هذا عبدالرحمن الناصر وأبو جعفر المنصور، ومن قبل هذين عمر بن عبدالعزيز.

ومن القضاة الكبار الذين نهجوا هذا النهج يحيى بن سعيد الأنصاري وسليمان بن حرب، وكذلك فعل شريح القاضي وشريك منذ أقدم الأزمان.

ومنها فالقضاء لا يصلح له إلا المكيث قوي التأمل البعيد عن الظهور، لكن قوة العمل مع الإتقان وحسن الخلق على كل حال.

ولهذا كان القضاء في الدول المتعاقبة خلال العهود بنية أصلية في تأسيس الحضارة، وبناء العود الذي لا يكون الأمر إلا من خلاله محاطًا بولاء تام لولي المسلمين؛ ولهذا صنف الأقدمون في القضاء، وأطنبوا وشرحوا وقعدوا وأصلوا، وبنيت على هذا كله كتابي (حال المتهم في مجلس القضاء).

من هذا الباب وما يتطلبه هذا المعجم أبين ما يدور حول لفظ القضاء من حيث المقتضى اللغوي لنصل من خلال ذلك إلى المراد منه بحسب السياق المعجمي عند المصنفين.

فلنبدأ:

أولًا: قضاء بمعنى أوحى وأنزل.

ثانيًا: قضاء بمعنى أمر.

ثالثًا: قضاء بمعنى قال أو دبر.

رابعًا: قضاء خلق وأوجد.

خامسًا: قضاء ألزم، وهذا نتيجة اللهو.

سادسًا: قضاء بمعنى حكم.

سابعًا: قضاء بمعنى فعل وأنهى.

- وقضى لي (وهبني وحكم لي).

- وتقضي لي مثله على سبيل الاستمرار.

- ويقضون يحكمون، ومنه يمضون، ومن ذلك قضوا وساروا.

- ومن ذلك أيضًا يقضون الليل يبيتون، وهذا من باب التضاد، وعلى هذا يراد به يسهرون.

- وهل قضى لك؟ حكم لك.

وفي الجملة، فإن القضاء على هذا الأساس، وما تقدم قولي فيه أجزم كما جزم غيري من الأقدمين أنه سياسة تتعلق بذات العقل لا بذات القلب؛ ولهذا فالقضاء من ضخامته ثقيل، لا يقوم عليه ولا يقوم به إلا الثقيل؛ ولهذا كان النبي ﷺ والخلفاء بعده يكتشفون الموهبة، ثم يوظفونها، ثم ينمونها، ثم يحافظون عليها؛ ولهذا سار الدهر بذكر الأولين على تجرم العصور.

ويكفي في القضاء قوة الاكتساب إذا تضمن ذلك قوة التأني وشدة المواجهة، وتمام العدل بين طرف وطرف، والمكث الطويل في نظر القضايا، والإحاطة بأصولها وفروعها كافة؛ ذلك على أن الحكم على الشيء لا يمكن أن يكون إلا بتصوره تمام التصور، والله الموفق.

الطرق والمعرفة لدى الكتاب والباحثين اليوم

من نافلة القول أن يتكرر ما يدونه بعض الكتاب والباحثين، ذلك من خلال أطروحات متباينة عن مسألة الطرق والمعرفة المتعددة لكسب شخصية علمية أو شخصية قوية أو إدارية أو سياسية أو ما شئت من شخصية ينشدها الإنسان بحسب رغبته في تكوين الشخصية التي ينشدها، ويسعى إليها. وقد طرح بعض الكتاب من جامعي المعلومات العلمية والنفسية والقيادية طرحوا طرقًا متنوعة ومتعددة.

فتقرأ أحيانًا مثل: «إليك خمسة طرق أو هذه عشرة طرق أو... أو... للوصول إلى بناء شخصية كذا... وكذا».

ولقد تعجب مثلي أن النقل هو سيد الموقف بين جميع من تناولوا هذه المسألة بل حتى بعض علماء النفس لا علماء الطب النفسي قد نقل بعضهم من بعض بل إن بعضهم لعله يلقي محاضرة على طلابه عن هذه الطرق أو تلك المعرفة لكن مما نقله وزاد عليه أو نقص، وقد يمشي هذا على الطلاب لعله بسبب ضعف القراءة على مثل هذا خاصة الكتب والنشرات التي لم تترجم بعد.

لقد قرأت مثل «هذه خمسة طرق لكسب شخصية متوازنة» ومثل «إليك سبعة طرق للوصول إلى شخصية ناجحة» أو مثل «هذه عشر محطات أو خمس تفيدك لتكون شخصية سوية في الحياة».

ولا شك أن القارئ سوف يفرح بمثل هذا، ويطبقها في حياته ليترك ذلك بعد حين حينما يجد طرقًا أخرى نشرها جامع المعلومات الآخر.

وأحسب أن هذا فيه تلاعب من خلال جمع المعلومات ثم نشرها ثم تكرارها بعد ذلك بأسلوب آخر.

لكن الذي وقفت عليه طبيًّا من خلال تجاربي أن الإنسان لا يصلح له كل ما يقرؤه وإن أعجب به ووجد قبولًا عنده، فعلماء النفس النظري والكتاب يحتاجون إلى دراسات نفسية تطبيقية متطاولة؛ لأن ما يصلح لهذا قد لا يصلح لذاك.

وعليه فسوف أبين أولًا معجم هذه المفردة، ثم أذلف إلى حقيقة ما أجمع إليه الطب النفسي لا على ما ذكره علماء النفس النظري أو نقلة (جامعي المعلومات كيفما اتفق) فأقول على سبيل الاختصار ما يأتي:

١- الطرق هو الضرب، طرق الباب ضربه.

٢- الطرق هو النقر، نقر الباب لطلب الإذن بالدخول.

٣- الطرق هو ضرب شيء بشيء كضرب الحديد لصناعة إناء أو وعاء.

٤- الطرق هو السير ليلًا، ويدخله القياس على وجه واحد.

٥- الطرق هو السير على وجه العموم.

وطرق (سار) وطرق (ضرب) وطرق (نقر) ويطرق (يضرب) أو (يسافر).

والطرق على هذا يدخل هذه المفردة التشابه اللفظي فأحيانًا يتفق المعنى وأحيانًا يختلف لكن ذلك إنما يكون بحسب الدلالة حسًّا أو معنى.

وهنا لعلي أبين صفات عامة لم يختلف عليها الطب النفسي التطبيقي وهم الأصل في هذا مع ما يوجبه الحاصل من هنا من ضرب الأمثلة.

فمن أهم ما يحسن سلوكه والاتصاف به:

١- معرفة الإنسان قدراته الشخصية.

٢- معرفة الإنسان قدراته العلمية.

٣- معرفة الإنسان قدراته الفكرية.

وهذه الثلاث يحسن أن تكون بتمام تجرد في حالتين:

أ- من خلال كونك وحدك بصفاء ونقاء ووضوح.

ب- ومن خلال النقاش أو الإجابات أو طلب الرأي منك.

٤- الدوام على الصدق حتى في حال الضرورة ما لم تكن الضرورة أشد خطرًا.

٥- التماسك والترصن دائمًا دون إيحاء بكبر أو علو.

٦- الهدوء وهو قطب الرحى هنا، إذ هو من صفات العقل والنفس معًا وهذا يطرد لديك العجلة والانتصار للنفس وهو جالب لهدوء الحركة ويولد تلقائيًّا الثقة بالنفس ويعكس عنك صورة جيدة متزنة.

٧- نبذ الكره (الكراهية والحقد) حتى مع من لم تقبله أصلًا، فقد يكون من تكرهه ضحية وشاية لأختك المتزوجة أو لجارك ابن العم أو لرئيسك أو بسبب وشاية انتشرت لم تناقشها أصلًا، وهذا يولد الأحساس بصفاء الذهن، فقد ينكشف بعد حين من الدهر كذب ما سبب لك الكره والحقد.

٨- الولع بالعظمة بحسب قدراتك وما تميل إليه حقًّا لكن تنبه لجانب غامض، فيجب أن تحاربه وهو (الحسد) لأي ناجح ترى أن فيه صفات هي أو بعضها، فيك فتقطع الطريق عليه ولو من باب العفوية.

فقد سئل صلاح الدين الأيوبي عن نفسه؟ فقال: «المثنى بن حارثة سيدي وقد أغار منه».

وهذه الغيرة محمودة عند عامة الأطباء؛ لأنها أوصلت صلاح الدين إلى هذه المنزلة خلال العهود.

وسئل عقبة بن نافع: كيف بك الآن؟

فقال: حبي للمعالي لله تعالى وشخصية عمر قادتني إلى هذا.

وقيل لأبي جعفر المنصور: الآن سدت، فقال: إنما السؤدد بالدين والعقل لكن معاوية أخذت منه الحكمة وطول المكث.

وقال إبراهام لنكونن: ألهمني الحياة وحب العدل أن أكون محاميًا لكن شخصية (محمد) غلبت علي.

وقال طاغور: الشعر أتنفس من خلاله الحكمة إلا أن لقمان ألهمني معنى الحياة وترك الظلم.

٩- تجنب الريبة واستفد من الفشل.

١٠- معاودة التجربة والسرعة في الإنجاز المتجدد.

١١- النوم باكرًا وأخذ النفس بالجد.

١٢- ترك الإلحاح وكثرة التمني

١٣- التخصص بمجال واحد تبرز فيه بجدارة بعيدًا عن الانتحال والمحاكاة.

وما أذكره هنا ليس مستحيلًا مع قوة النظر وأخذ النفس بالصدق والجد، لكن يحسن هنا ألا تلتفت أبدًا، فقد توصف بأنك مريض أو ضعيف، أو أنك عين لأحد على أحد، أو أنك تسعى للشهرة، فدع كل هذا، وسر لا تلتفت إلى هذا لا

تلتفت إلى الورى، فالعقلاء كثيرون أما الحمقى والمتلقفون للقيل والقال فدعهم يرفلون بأثواب الخطايا إلى يوم يبعثون.

الإنسان من خلال الزمن قراءة علمية

يقع الخلاف كثيرًا في كثير من المفردات اللغوية والعلمية حول ما ترمي إليه من معنى أو معانٍ وكذا يقع الخلاف في الأماكن وظروف الوقائع بين جيل وجيل وعالم وعالم وزمان وزمان وفقه المستجدات حريٌّ بها أن تكون كذلك وهذا معتبر في السياقات العلمية العالمية في كثير من الدول التي تتبنى الإضافات النوعية في مجالات كثيرة خاصةً ما يوحي منها إلى زيادة نباهة العقل وتحرره من رابطة الانكماش وسط عالم يعيش من خلال قرية واحدة كما هو مشاهد في هذا الحين، وهذه واحدة تشهد على قدرة الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦] .

ومن هنا أحاول تلمس حقيقة الزمان لغويًّا وعلميًّا مع ما يوجبه هذا من دلالات الاستشهاد.

من هذا المنطلق أقول: يراد بالزمان ما يأتي:

١- زمن: وقت.

٢- زمن: ظرف ما.

٣- زمن: يراد به الدهر على وجه مقارب.

٤- زمن: بحسب القرينة فقد يراد ساعة أو يوم أو ليلة.

٥- زمن: حال ما من ظرف معين على سبيل الوقت.

٦- زمن: (بكسر الميم) حال أو صفة من المرض وغالبًا إنما يكون الزمن «بتشديد الزاي وكسر الميم المقعد».

وقد اشتهر الإمام محمد بن خازم روى له البخاري وغيره بهذا كما اشتهر الإمام مكحول بهذا ومثلهما الإمام الجليل محمد بن المثنى روى له كثير من المحدثين (ثقةٌ ثبتٌ).

تقول: أتيتك زمانًا تريد منذ مدة.

وتقول: أتيتك من زمان تريد منذ مدة بعيدة.

وفي الاعتبار اللغوي السائر عند أئمة اللغة يدخل هذا الفعل المضارع والماضي كذلك، فيقال:

١- آتيك زمانًا.

٢- وأتيتك زمانًا.

كما يجري فعل الأمر على هذا المنوال، فيقال:

أقبل زمانًا.

تقول العرب: «مر علينا زمان خير» أي: وقت أو دهر.

وتقول: «ذاك زمان فضل».

وأصل الزمن من باب الخلق الكوني أنه ظرف يعيشه الإنسان وسواه إلى حين.

وخالق الزمن هو الله جَلَّوَعَلَا وهناك فرق من باب المنطق العقلي الجيد بين الإيجاد من لا شيء وبين الكشف والاختراع.

وأغلب الظن أن المادية الجدلية التي أخذت بعض آرائها من المعتزلة، واطلع ماركس على كثير منها في مكتبة ليدن في هولندا وكذا مكتبة النمسا القديمة

أغلب الظن أنهم ينظرون من زاوية واحدة وبرأي واحد ووجهة واحدة قد تلبي الغرض الذي ينشده من خلال الإسقاطات اللاشعورية.

والذي أسفت عليه كثيرًا أن إسلام البحيري ويوسف زيدان ومحمد شحرور، وإن لم يكونوا كذلك لكنهم يخضعون التفسير والآراء لمنهج علمي جديد ليس فيه من العلم إلا كلاقطة الحصى من مكان ليس بذاك.

أقول: عودٌ على بدء والزمن كما مر مقدار من الوقت بحسب كل أحد وبحسب كل شيء ولذلك فإن إنشتاين في حقيقته النسبية الزمنية والضوئية قد أجاد في هذا المجال لولا أنه ضيق أفق النظرية ولهذا تم انتقاده خلال الأربعين سنة الماضية ما أظهر أن الإنسان من خلال ضعفه قد يظن أنه اكتشف كل شيء لكن إنشتاين يبقى جيدًا في مجاله.

والله عَزَّوَجَلَّ خلق الخلق وأقدارهم وآجالهم كلٌّ بحسب معلوم ولهذا يكون الجهل العلمي مشكلة العقل المعاصر كما كان مشكلة منذ أقدم العصور وذلك حينما حرف أرسطو وأفلاطون كثيرًا من تعاليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وحكمته التي جاءت في الصحف، فأصبحت أثينا في حين قديم ذات طابع مادي برأي أحادي وهذا إنما كان بسبب طغيان النفس على العقل الحر والسطو الذكي إلى منهج يخال صاحبه أنه هو من جاء بما لم يكن من قبل.

ومع أن هذا قد كان إلا أن فرضية الإمكان تجعل من النفس مخادعة للعقل، فقد ظن الناس خلال دهور متعاقبة بل إلى اليوم أن الحكمة والرأي إنما جاء بهما طرًّا أفلاطون وأرسطو بينما ذلك إنما كان من رسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقص ولزق في حال وضوح تام لمن اطّلع على كتاب (الجمهورية).

وأقول من نافلة الطرح العلمي التقعيدي: إن القضاء والقدر آيتان على حكمة الله وتدبيره.

والقضاء والقدر يختلفان، فليس كما يظن كثير من طلاب العلم والمثقفين وذوي التحقيق العجول، فليس القضاء هو القدر ولا هذا ذاك، وقول العامة في كل ما حصل أو يحصل (قضاء وقدر) هذا جهلٌ بسياسة النص والآثار وما ترمي إليه من معانٍ من خلال وقوعها عبر الزمن من خلال حياة الإنسان والحيوان والأرض.

وإذا كان الزمن أو الزمان هو ظرف كل أحد فهذا الظرف المحدود يدور بين القضاء والقدر، والحق أقول: إن تقديم العقل برابط التنبه الإرادي التحرري من مشكلات التقليد القرائي وضعف التلقي وضعف الاطّلاع هذا يكون مدعاةً إلى مكانك سر، وهذا هو الانغلاق في عصر الانفتاح في مثل هذا الحين.

وهذا يدعوني إلى القول على سبيل البسط، فأذكر من باب الاختصار أن القضاء وما قضاه الله تعالى على خلقه ولكن الله تعالى أعطى الإنسان فيه الاختيار والأخذ والترك وعليه بترتب الجزاء في الدنيا والآخرة كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود:٢٨] فكونهم يكرهون أو يحبون أو يقومون أو يقعدون أو يقبلون أو ينكرون فهذا بإرادة منهم لأنهم استعملوا العقل على أساس ضيق من خلال رؤية الحياة فقط وحب الحياة دون رابط من عقل سديد.

إذًا فكل ما يقدر عليه الإنسان خلال زمانه أو خلال زمن محدود ثم هو لا يقوم به يكون إثمًا.

ولهذا زل نجيب محفوظ في كتابه (أولاد حارتنا) في كثير من الحوارات وإن كنت أعذر محفوظ إلا أن الأولى أن يستجيب لدواخله التي تدعوه إلى ضبط الرواية بضابط العقل وبشيء من العاطفة وبشيء من القلب على وتيرة الطرح المتين حتى تكون الرواية أو القصة على سبيل جيد من واقع مهيب ومثله فعل إحسان عبدالقدوس وكذلك فعل توفيق الحكيم في كتابه (حماري قال لي) وهو

هنا قد أسفّ كثيرًا ولم يرتبط برابط الطرح الروائي أو الحدث القصصي وإن كنت أعتبر ما كتبه هو وكثيرون عبارة عن آراء وخواطر إلا أن الزمن الذي كان تدور حوله هذه الحكايات والخواطر قد تم ليّه ليًّا دون تنبه إلى أن النقد سوف يتبين منه حقيقة ما تم في حينهم الذي قاموا به في زمن قليل.

وأما القدر فهو ما كان على الإنسان دون اختيار منه ولا حيلة لهم في هذا خلال زمانه في حياته.

فمثلًا كونه ولد أعمى أو ولد أعرج أو ولد كفيف البصر أو أسود أو أبيض.

فهذا لا يترتب عليه جزاء؛ لأنه قدر، وكان لا يد للإنسان فيه.

ولهذا فالقضاء والقدر أمران مختلفان لكن الجهل العلمي لجهل الاستقراء والتدبر ومعرفة أصول التقعيد وحقيقة رؤية العقل المجدر جعلت هناك خلطًا بين القضاء والقدر ولهذا فإن العقاد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن (الإنسان والقرآن) قد خلط وإن كان معذورًا لبذل الجهد والتحقيق صوب هذا لكنه قد كان بإمكانه على الأقل السؤال قبل طرح الكتاب ولهذا وقع في الزلل لعله دون قصد منه.

وتبعًا لما مضى في نسق مطّرد في دائرات مفتوحة من خلال هذه القراءة العلمية أقول: من أجل ذلك هيأ الله تعالى للإنسان، وسهل عليه العمل الذي شرعه له، ما لم تخادع النفس فيه العقل، فتوسوس له مثلًا ثقل قبول الحق في العبادات أو في المعاملات المنضبطة بالدليل خلال زمانه الذي يعيش فيه.

لأن النفس حين تحتال على العقل يأتي معها الهوى والرغبة اللاشعورية نحو التعلق بالزمن من خلال نشدان الخلود، ويبرر ما يميل إليه هنا إباحةً أو نقاشًا أو جدلًا، من أجل ذلك يقع الزلل حتى في قضايا الإيمان والتوحيد.

ولما كان سقف العقل محدودًا في حقيقة التفكير والتدبر تأتي حيل النفس، وتجر معها الخيال والتخيل، فقد يحصل هنا الإلحاد لا شعوريًّا وما دام الإلحاد

يفتح المجال نحو رغبات النفس لا شعوريًّا ورغبات الهوى كذلك، فإنه يمضي في هذا السبيل وإن كان يحصل له قرع العقل بين حين وحين لكنه لا يلتفت إلى هذا لطغيان الهوى ونشدان الحياة كما يتصور ذلك؛ لأن العقل المأسور بقيد النفس وحيلها ولأن الخيال جامح لا حد له فإنه يسيح تائهًا في (اللا أدري) فتكون المحصلة الميل اللاشعوري عن وعي الإيمان.

من أجل ذلك جاء بعث الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإنزال الوحي، ولهذا فإن عبدالرحمن بدوي في جل كتاباته لم يكن بذلك المتوسع في حقائق الكون المقروء ولا في حقائق الكون المنظور، فتخبط كثيرًا، وإن كان أخيرًا قد ثاب، وحسن من وضعه قليلًا قبل وفاته حينما أحس بثقل لوم الضمير.

ولكن سلامة موسى وأحمد بن عبدالمعطي حجازي لم يكونا على درجه من العمق التصوري لحقيقة النص، وما يكون له من الحكمة في الخلق والسياسة والاجتهاد ولهذا زلا، وهو نفسه ما ارتكبه (خالص جلبي) وما يرتكبه الآن (ياسر الحبيب) بشيء من التبذل والاعوجاج وهو ما نصت عليه (رسائل الخميني).

ولا جرم فليس هناك أجل من النزاهة ورؤية وصول حقائق العقل الفطري، فقد سئل أحد أهل الكتاب عن الربوبية وما جاء هناك مختصرًا ما يأتي على سبيل السؤال.

أولًا: هل يمكن أن يولد (الإله)؟

ثانيًا: هل يمكن أن يصلب الإله؟

ثالثًا: هل يمكن أن يتحمل الإله كما تقولون عذاب الناس هكذا؟

رابعًا: من كان يدبر الكون والخلق حينما تم صلب الإله كما تقولون؟

أسئلة عقلية حرة عالية السقف لا ينفع فيها إجابات تقليدية أو عاطفية أو تأويلية.

وحقيقة القول هنا كما في سورة (الأنعام) و(يونس) و(النحل): إن من لا يتقيد برابط العقل الحر المكين تنعكس في عقله الباطن الحقائق، فيظن هنا بل يتيقن ويتأكد لديه أن المسار الذي هو عليه هو الصحيح، فتجده مثلًا يتجرد عن حقيقة الفكر الصواب إلى منطلقات هائجة يراها عقلية بل ومنطقية كالجرأة على النص أو الأحكام، فتجده ينظّر (بتشديد الظاء) مع كسرها، فقد يعجب بملحد لأنه حر التفكير واسع النظر دون الالتفات أصلًا إلى حيل النفس ومراوغة الهوى وتقلب القلب، ولهذا تجد هذا النوع لا يتورع عن أي شيء تفكيرًا أو كتابة أو عملًا بينما هو في أعماق نفسه الداخلية إنما يريد تحقيق طموح ما كبديل عما فقده من قبل.

فالزمن يكمن (الإنسان) داخله من باب حكمة الخالق في خلقه.

١- كيف يفكر؟

٢- كيف يعمل؟

٣- كيف يصدق؟

٤- كيف يتحرر؟

٥- كيف ينظر ؟

ومن هنا حينما يسلم الإنسان نفسه من خلال عقله إلى غيره يكون تابعًا له، فتنشأ التبعية دون شعور.

ولهذا فإن محمد شحرور في لقاءاته مع الأستاذ الفاضل يحيى الأمير قد أخطأ أخطاء قد يصعب عليه تصحيحها لو رجع إلى أصول وقواعد التفسير العلمي بما دلت عليه النصوص وأسباب النزول، ولذلك حينما فسر علم الأجنة في هذا اللقاء أهمل مقدمة سورة (الحج) التي بيَّنت أصل الخلق والفرق بين الإنسان وغيره في الخلق والإيجاد، كما أنه زل زللًا واضحًا من خلال فرضية

الزمن المتطاول بعدوله عن حقيقة (الظلمات الثلاث) والذي آلمني كثيرًا أنه في إحدى لقاءاته حينما سئل عن: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ [الفجر:١-٢]، فسّر الليالي العشر تفسيرًا لا يمت للحقيقة بصلة لا من حيث الواقع العلمي، ولا من حيث الواقع النظري، ولا من حيث الواقع النصي فأبعد النجعة لو اطّلع على سبب النزول عند كثير من المفسرين لوجد أن العشر هذه إنما هي عشر ذي الحجة، لكن المشكلة عنده كما هي عند عدنان ابراهيم ويوسف زيدان هي الرؤية الضيقة من خلال جعل الزمن مرتعًا للاجتهاد الذي لا يمت لحقيقة العلم بصلة، وكما قد قهقهت، واستغرقت في هذا حينما كنت أستمع إلى محمد شحرور في شرحه لآيات الكون والخلق والإيجاد.

وسوف إن شاء الله تعالى أبين المزيد في طرح علمي حيال هذا من خلال هذه المجلة التي لعلها سبقت غيرها في ارتفاعها الجيد في الأطروحات الراقية.

تبني الدولة للمجتهد الموهوب متى يكون؟

أبدأ هنا بضرورة لا بد منها، وذلك هو بيان المراد بالمجتهد، لندخل في صلب الموضوع، الذي أحببت تناوله، فأقول:

يقال:

١- اجتهد: بذل على وجه مطلق.

٢- اجتهد: أعطى بجهده.

٣- اجتهد: بذل الوسع والطاقة.

٤- اجتهد: نصح بقوة وحكمة.

٥- اجتهد: توسع نظره بجهد حكيم.

٦- اجتهد: توصل إلى مراده بعد جهد في مسأله أو مسائل.

٧- اجتهد: قر قراره بعد بذل واسع على حكم معين أو رأي ليس له مخالف.

ولعل هذه التعريفات مؤداها واحد وإن اختلف اللفظ بين هذا وذاك.

وكلها يعني كل ما يبذل فيه الجهد.

وأحسن شيء في هذا الباب جعل الباب مفتوحًا لاختلاف العقول ما بين قوي ومتوسط أو وسط أو محدود السقف العلمي وهذا جهده.

وإنما يكون القريب من الحق ممن عرف صاحبه بكمال العقل بحسب التجربة وقوة الأمانة ودقة النظر وقوة الاستيعاب وعدم اللجاجة.

والذي يعنيني في هذا كما يعنيني في سائر طرحي من المسائل العلمية والعقلية المستجدة وبحسب دراساتي المتطاولة واستشفافي لحالات كثيرة عقلية ونفسية وسلوكية ممن جالستهم أو زاروني أو هم أرادوا طلب المشورة أو ممن قرأت تراجمهم خلال أزمان سلفت.

الذي يعنيني هنا، وآمل ألا يكون ضربة لازب أن الخلط الحاصل اليوم بين وجهة النظر والملاحظة والتعقيب العلمي الدقيق وقوة الحضور العلمي والإصرار على وجه واحد أن هذا الخلط زعزع حقيقة الاجتهاد، أقول: الاجتهاد نوع آخر فغالب صفات المجتهد أنه:

١- ذو أريحية جبلية.

٢- واسع البال.

٣- فطن وواعٍ وحذر.

٤- يفصل ويبين لكن بسعة بطان إما بدليل صحيح أو بتعليل يقبله حتى الخصوم لشبه كمال حقيقته.

٥- واسع الاطلاع يدرك ما لا يدركه غيره لكنه يتطلف، فإذا علم أنه لن يفهمه أحد انسحب ذلك؛ لأن المجتهد بطبعه (موهوب) فهو يميل إلى الانطواء شيئًا فشيئًا.

مشكلته خلال العصور المتعاقبة أن قد لا يفهمه إلا الذين حوله ولهذا قد يساء به الظن ومشكلته الأخرى أن قد يقع في دائرة الحسد من قبل قريب (وهذا كثير) أو (زميل) أو صاحب ولهذا تنبه كثير من الساسة لهاتين الصفتين،

فكانوا يحمون هذا النوع بصورة سرية قد لا يدركها هو وكانوا يرجعون إليه دون تنبه منه.

أما تلك الصفات التي يحسن بي إيرادها وهي قد تستغرب لكنها ذات اعتبار جيد في مسار تراجم وحالات المجتهدين، فأول ما يلاحظ عليه:

١- أنه معاند.

٢- وقد ينشئ حوله عداوات لكنها لا شعوريًّا تكون من باب الإعجاب به كيف يصبر؟ كيف يكتب؟ كيف يجتهد؟

٣- غالبًا يميل هذا النوع إلى السمرة الفاتحة.

٤- يميل في صورته الظاهرة إلى الملاحة وجذب النظر إليه.

٥- خفيف الشعر خاصة العارضين.

٦- قد يشكل الصلع لدى المجتهد أعني الموهوب قرابة خمسين في المئة.

٧- ينفر من البهرجة وحب الصيت، فهو يميل للسكوت كثيرًا ما لم يلح عليه أو يعزم عليه ولي الأمر حتى وإن لم يكن يرغبه.

٨- يبتعد عن المشاحنات، وقد يوصف بضعف الشخصية ويوصم بها وقد يتجنبه الآخرون جهلًا بحقيقة غوره ومع هذا قد يكون عرضة للقيل والقال.

ولعله من الصعب على الباحث الوقوف على ترجمة المجتهد ما لم يؤتَ حظًّا من العمق والتجربة والدراية النفسية التجريبية ووفرة القياس العقلي وإلا فإن الذهبي في كتابة السائر (تذكرة الحفاظ) فهي وفرة وافرة من المجتهدين الذين لهم بصمة في التاريخ لكن كما ذكرت آنفًا أنه لا بد للباحث من صفات حريّ بها أن تكون ولا جرم، ففي السياسات العليا للدول المعاصرة يمثل هذا حاجة ملحة للكشف عن هذا النوع في الزوايا؛ زوايا بيته أو مكتبته أو زوايا نفسه

بما يظهر عليه من بساطة وتواضع، ففي هذا مكسب خالد قد يختصر العلم والآراء والتنظيرات.

فوجود مجتهد واحد ممن ذكرت الحال عنه قد يغطي العدد الوافر من كثير سواه.

ولعل من نافلة القول ما هو حريّ أن أذكره مما وقفت عليه في مثل هذا أن هذا النوع من المجتهدين في حالة تبسطه وانشراح صدره مع الخاصة به أو مع من يمون عليهم أنه يميل للدعابة ليسلي نفسه مما يعانيه من تجاهل، وإن كان ليس هو في حاجة إلى هذا لكن هذا جرى من كثير من المجتهدين كحال بعض الصحابه كجليبيب وعبدالله بن حذافة السهمي وكأبي هريرة وسواهم والإمام التركماني والليث بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وعد ما شئت.

ومن غرائب المجتهد من هذا النوع أنك تعجب كيف يولد الرأي البكر من نص صحيح لم يسبقه إليه غيره إذًا فهذا النوع حسبك به من نوع.

بناء الدولة من خلال العقل كيف يكون؟

تميل بعض الدراسات والمراكز المتخصصة اليوم في كثير من الدول الحديثة إلى اختيار عدة أعضاء من المرموقين من ذوي العلم أو السياسة أو الاجتماع أو الطب أو الاستشارات العقلية الواعية اختيار عدة أعضاء ليتم بعد ذلك رؤية واضحة نحو مسألة واحده أو نحو عدة مسائل تحتاج إلى نظر، وتحتاج إلى جديد من الآراء المدعمة بالدليل أو المدعمة بالتعليل.

ويحصل هنا أن يتوقف بعض الأعضاء عن بذل رأيه لعدم وضوح المسألة له أو لأنه يريد مزيدًا من الوقت وكما يحصل هذا فإنه قد يحصل أن بعض الأعضاء قد يخالف في رأيه.

فلما تميل هذه المراكز في الدول المعاصرة إلى اختيار الأعضاء مع أن هناك علماء ليسوا ضمن هذه المراكز.

وهؤلاء العلماء قد يتصف بعضهم بجلال العلم وقوة الرأي، لعل السبب هو أن هؤلاء العلماء لا يرغبون في هذا، فيعتذرون للحاجة الشخصية إلى التفرغ الذاتي للبحث والنظر وطول التأمل، أو لأن طبيعتهم لا تميل إلى هذا، أو لأن لديهم من الصفات النفسية ما يجعلهم أنفسهم لا يرجع إليهم كحدة الطبع مثلًا، وحب الانزواء.

ولهذا مثل هذا الصنف ليسوا ضمن من سوف يكونون ضمن هذه المراكز وسواها، وإلا فلو حصل هذا لتم اختصار الطريق.

إلى كثيرٍ من النوازل والاستشارات الضاربة في أعماق العقل التجريبي.

إن كثيرًا من الصفات النفسية لدى بعض العلماء الذين يشار إليهم بالبنان خلال قرون سلفت ممن ذكرهم ابن خلدون وابن الأثير والذهبي وابن أبي حاتم وابن شبة والأزرقي ومن المتأخرين كثير معروف نجد أنهم ليسوا لهم إلا الكتب والآراء السامقة غير المسبوقة لكنهم لم يكونوا تحت دائرة عمل معين، وإن كانوا يشاركون في لقاء أو محاضرة أو حوار أو ندوة، ولعل حضور الواحد منهم يضفي ثقلًا كبيرًا من الراحة والطمأنينة.

ولهذا قد تخسر الحياة المعاصرة في كثير من المسائل المطروحة القطع والاجتهاد للحاجة مثل هؤلاء.

وإذا كان النقد بحد ذاته؛ نقد الآراء ونقد فقه الأدلة وسياسة الحياة إذا كان النقد أمرًا جيدًا في بابه، وقد يسد نسبة عالية من غياب من ذكرت صفاتهم إلا أنه يحتاج إلى رؤية لازمة أن تكون بعد كل رأي ونظر وطرح متداول.

ذلك أن النقد يقوّم العمل، ويجدد الرؤية في كثير من المنازل في مناحي الحياة المعاصرة، وإذا كان النقد على هذه الحيثية يسير جنبًا إلى جنب في الدول المعاصرة فإنه حري بالأمر أن ينتج عنه آراء قد تصل إلى حد القبول شبه المطلق، وها هي الآراء والقواعد والأصول مدونة عند الأولين وفي كتب المتأخرين.

فعند تحرير العلم والاجتهاد المطلق والاجتهاد المقيد لا يعودون إلى كتب الأخبار والسير لضعف الآثار فيها وخطأ المسار الذي سارت عليه؛ لأنها عبارات عن جمع ونقل ورواية دون دراية ولهذا كان الحكام في أمم سلفت يعتمدون على التجديد الإضافي من الموهوبين إذا كانوا يتصفون بالولاء والنزاهة والأمانة.

وليس هناك بحسب تتبعي في سياسة الإدارة العليا والتحليل العلمي وتحليلاتي النفسية مما جرى بين الإمامين محمد بن إبراهيم آل الشيخ وعبدالعزيز بن باز حول إرضاع الزوجة لزوجها، فحين تم الخلاف كان هذا

درسًا للعلماء ممن عاصرهما حينها أو ممن جاء بعدهما في كيفية بيان وجهة النظر العلمية الحكيمة البعيدة عن الانقياد للرأي أو وجهة النظر.

ومع أن ابن باز كان أحد تلامذة ابن إبراهيم إلا أنه احترم رأيه ووجهة نظره وقدره.

وليس المقصود هنا إلا أن النقد إذا تجرد صاحبه، ونشد الحق بضابط فهم النقد مع دليله أو تعليله كان ذلك قاعدة يسار عليها.

وأذكر أنني نقلت أحد القضاة سنة ١٤٠٠هـ من موضعه إلى موضع آخر أخف من موضعه الأول لما نسي معاملة في مكتبه، وأقفل عليها في الدرج، وأذكر أن هذا شاع، فصلحت حال كثير من القضاة.

والإمام ابن إبراهيم والإمام ابن باز لا جرم كانت وفاة هذين مصيبة كبيرة لا يملك معها المؤمن إلا قول: «إنا لله وإنا إليه راجعون» ونظر ترجمتهما، وكيف كانت ردود ابن إبراهيم وابن باز على السائلين التي تحتاج إلى بيان وتوضيح من خلال النص والإقناع العقلي لا شك أن الاطلاع على هذا يفيد.

وكم أردت في هذا الطرح وما سبقه، وما أبثه من كلام أن يتكئ العلماء وسواهم على قاعدة صلبة من عقل سديد، فيبتعد الكل عن مجرد النقل المعلوماتية والتحليل الظني دون فهم أصول وقواعد النقل والنقاش والرأي والوصول إلى النتيجة التي تؤخذ للعالم وسواه تؤخذ له لا عليه، فيبقى خالد الذكر قوي الرأي سديد النظر محنك الشخصية.

هذا هو السبيل، فليس من سبيل اللوازم أن يسعى المرء للذكر بين الناس من أجل الذاتية المجردة.

وأغلب الظن أن المراكز المتخصصة والهيئات العلمية الدقيقة هي اليوم في حاجة ماسة إلى أولئك العلماء حتى وإن كانوا يميلون لشدة الرأي ما داموا

على درجة جليلة من الحفظ والفهم وموهبة النظر ما داموا في دائرة العقل والرأي السديد.

أين المسؤولون حيال السطو والبحث العلمي؟

١- استقصاء: عمق في الشيء.

٢- استقصاء: استقصاء المسألة: أدركها.

٣- استقصاء: أحاط خبرًا بما أراد.

٤- استقصاء: بذل الجهد بحسب قدرته.

٥- استقصاء: بذل الجهد بالاستشارة... وطول النظر.

٦- استقصاء: تجرد من ذاته... وميوله للوصول إلى الحقيقة.

٧- استقصاء: أدار المسألة على كل وجه للوقوف على الصواب دون مواربة.

٨- استقصاء: وصل إلى رأي سديد باستنطاق جميع الوجوه.

وأصل هذه المفردة أنها: (سداسية) الحروف، وهذه الكلمة من صفات العقل المتجرد المكين.

إذ لا يمكن للقلب هنا ولا العاطفة أن يتصفا بهذا، فإن استعمل القلب زل المراد، واتجه المستقصي إلى زلات قد لا يعيها.

وان استعملت العاطفة مالت به إلى هواه.

وعمي عن حقيقة المراد فيما يريد الوصول إليه، ومن الذين استقصوا فيمن خلف قرون، وتوصلوا إلى الحقيقة بعد طول نظر، وتمام تجرد.

١- أبو الحسن الأشعري.

٢- وابن قيم الجوزية.

٣- وأبو حيان التوحيدي.

٤- والإمام: يحيى الذهلي روى له البخاري وغيره.

٥- والإمام: إسماعيل بن إبراهيم (ابن علية) روى له البخاري... ومسلم... وغيرهما.

٦- والإمام : سويد بن سعيد روى له مسلم.

٧- والإمام: بشر بن محمد روى له البخاري.

٨- والإمام الحجة أبو معاوية (محمد بن خازم) روى له البخاري... وغيره.

ومن المعاصرين:

١- الشاعر أمل دنقل.

٢- محمد عمارة لكنه لم يسلم من بعض الرواسب.

٣- محمد أسد (ليوبلد فايس).

٤- مصطفى بن محمود.

٥- عباس بن محمود العقاد.

٦- هونكه: فقط في بيان المآثر في كتابه (شمس الإسلام تسطع على الغرب).

٧- الإمام الشوكاني وقد أجاد.

٨- الإمام الصنعاني وقد أجاد.

وهناك خلق سواهم كثير يمكن طرح ذلك في: المعجم (/ م/ ٨/ جـ٩) الذي سوف يظهر قريبًا بإذن الله تعالى.

والأصل في (الاستقصاء) أنه ذاتي النزعة وهو مرير على النفس وثقيل على الروح لمن لم يملك آليات الموهبة أو صفة من صفاتها، ولهذا يلجأ مع الأسف الشديد كثير من العلماء الباحثينوكتاب المقالات وخطباء الجوامع والدعاة إلى النقل بطريقة... أو بأخرى إلى: (الإنترنت) أو تكليف من يبحث هذه المسألة أو تلك من هنا... وهناك.

من أجل ذلك بحسب نظري انعدمت الإضافات العلمية وسواها، ففي كل حين أقرأ ويقرأ غيري عن عمليات السطو خاصة في البحوث العلمية التي يقوم بها أفراد... وكذا بعض الرسائل العلمية، ومن هنا يكون السبب في هذه الاتكالية وهو غياب العقل وضعف الرقابة وعدم جودة بعض دور النشر.

فالاستقصاء عملية جدَّ ثقيلة ورهيبة، ولهذا يكون الدور على المسؤولين ذا ثقل وقوة متابعة، ويكون ذا حزم مركز يلغي هذه الصفة شبه المنتشرة.

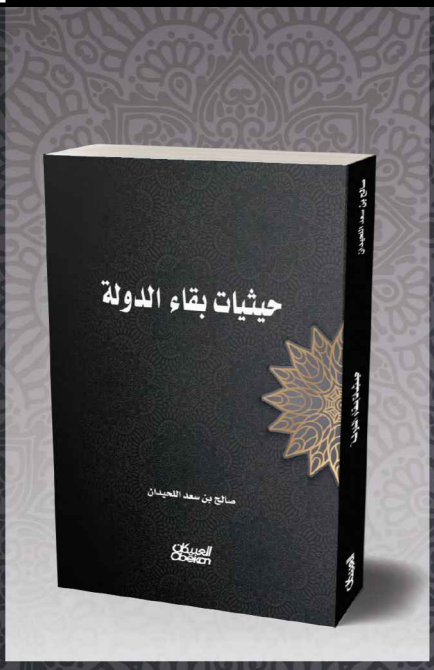

حلَّق المؤلف عبر صفحات هذا الكتاب في أجواء قضايا عدة وموضوعات شتى دارت في الفلك الفكري والسياسي والثقافي والعلمي، راصدةً انعكاسات كل ذلك على الشأن الدولي المعاصر، وما يموج به من أحداث ووقائع، فأجاد وأفاد، وقدم رؤية عصرية جديرة بالعناية وحقيقة بالاهتمام، ويُحسَب لها ألف حساب في التخطيط المستقبلي للدول والأمم في قابل الأيام.

وقد جاءت هذه الرؤى التي طرحها المؤلف -في كل ما عرض له في موضوعاته وقضاياه التي تناولها- من خلاصة تجربة حياتية وإنسانية امتدت، وتعمقت، وتنوعت، فأتت بالخلاصة التي تغني عن معاودة الطرح ومراجعة البحث، فها هي إليك عزيزي القارئ، جملة تجارب وزبدة خبرات ضُمِّنت في سطور، ورُصِدت في سفر قيم وفريد يستحق القراءة، ونراه أولى بالإشادة.

ISBN: 9786035092579
9 786035 092579
- المقالات العربية - السعودية
تلهم المعرفة
Inspiring Knowledge
Obeikan Reader
@ObeikanPub
العبيكان للنشر
Obeikan Publishing